الميزاب الذهبي

ALTINOLUK

مجلة فصلية – العدد السابع والعشرون (كانون الثاني–نيسان ٢٠١٩)

بذور خير

{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ...} (النساء: ١٠٥)

القرآن الكريم مصدر عزة وشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة القرآء:

أخبر المشركون سيدنا محمداً ﷺ بواسطة أبي طالب أنهم يريدون منه عودته عن دعوته، وكان الجواب النبوي على هذا الطلب دستورًا للثبات على الحق، ودليلًا على رسوخ الإيمان:

«يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر؛ حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته» .

كان هذا الموقف والبيان الذي لا يعتريه أي شك قدوة للإنسانية جمعاء، وأظهر درجة الكمال التي وصل إليها في ثباته على الإيمان، وإدراكه للمسؤولية، وكانت عبوديته خالصة لا تشوبها شائبة، نقّاها الله تعالى كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس.

لأن الأصل في هذه العروض والنداءات التي قُدِّمت لسيدنا محمد ﷺ -والتي ستقدم لكل السالكين على الطريق- كان التخلي عن الآخرة مقابل التنعم بالدنيا، وتاريخ الإنسانية مليء بالأمثلة عن أشخاص باعوا مسؤولياتهم ومثاليّاتهم، وأغراهم السعي وراء الأشياء الفانية والانغماس في الهوى والهوس، وضلوا طريق الحياة الأبدية.

وإذا تساءلت عن سر هذا الثبات، ومصدر هذه القوة، ونبراس هذا العالم من المثالية والنورانية؛ تجده القرآن الكريم والسنة النبوية، وما فيهما من المبادئ الجوهرية للإسلام، فالقرآن الكريم يأخذ بيدك إلى معرفة الله تعالى، والثناء عليه، ثم يبدأ معك طريق الهداية بتطهير القلب، وتزكية النفس، والإقبال عليه سبحانه، واللجوء إلى بابه، والاستئناس بجنابه، والاستسلام الكامل لإرادته؛ بعد الأخذ بأسبابه، ثم تأتي السنة المطهرة تطبيقًا عمليًا ميسرًا وكاملاً لمبادئ القرآن وهدايته، وأساليب التطهير وتزكية النفس، والوصول بها إلى عليين.

لقد أكرم الله تعالى البشرية جمعاء، وفي مقدمتهم سيدنا محمد ﷺ بإنزال القرآن الكريم الذي هو النداء الإلهي الموجه إلى البشرية، ليحفز حواسه وعقله وفكره، وليدرك ذاته، ويدرك الكون حوله، فيصل إلى معرفة الله تعالى حق المعرفة، عبر معرفة مخلوقاته وكونه المعجز، عبر التفكر والتأمل؛ إذ تصل إلى الصانع من خلال المصنوع، وإلى المسبب من خلال السبب، وتصل إلى الخالق من خلال مخلوقاته.

الميزاب الذهبي

مجلة تصدركل أربعة أشهر

العدد السابع والعشرون
(كانون الثاني–نيسان ٢٠١٩)

رئيس التحرير
بيت الله دميرجي أوغلو

مدير التحرير
حسام يوسف

هيئة التحرير
بيت اللهّ دميرجي اغلوا
حسام يوسف
آدم أزدمير
د. مراد قايا

التصحيح والتدقيق اللغوي
أ. حسن مرشد
أ. ابراهيم الحسن

التصميم والتنضيد والاخراج الفني
حسام يوسف

دار النشر والطباعة
Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60 / 3C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Tel:+90 212 671 07 00 Faks:+90 212 671 07 48

الإشتراك
لكي تصلكم المجلة بشكل دوري
يمكنكم الإشتراك سنوياً بمبلغ ٣٠ دولار

كما يمكنكم المساهمة بإرسال المقالات
والملاحظات على عناوين المجلة

للمراسلة
www.islamicpublishing.org
almizab2011@hotmail.com
almizab2011@gmail.com

المحتويات

٣

القرآن مصدر عزة وشرف
الدكتور: كريم بولاي

١٠

الصدور التي تحمل السكينة وتنشرها
د. إسماعيل لطفي جاكان

٢٨

أبو يزيد البسطامي-١
الأستاذ: عثمان نوري طوبّاش

٤٢

الدنيا كاذبة وخداعة
الأستاذ: علي رضا تمل

كلمة التحرير	١	إدخال السرور على قلب اليتيم	٢٧
القرآن مصدر عزة وشرف	٣	أبو يزيد البسطامي –١–	٢٨
التفاؤل والأمل	٧	محبة الرسول ﷺ	٣٥
التصوف موقد التربية	٨	امتحان الإنسان	٣٦
القلوب الصافية النقية	١٠	روح تلك المؤلفات	٣٨
لا يمكن من دونك	١٣	الدنيا كاذبة وخداعة	٤٢
العالم والأسلوب	١٦	الدعاء عبادة وفطرة	٤٦
عدم الإساءة إلى طريق المولى	١٩	سويداء القلب	٥٠
العقل والقلب	٢٠	إني على طريق الحياة	٥٤
ما هو التوكل	٢٤	العاقبة	٥٦
الرفق والتحمل	٢٦		

ملاحظة: المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ...﴾ (النساء: ١٠٥)

القرآن مصدر عزة وشرف

الدكتور: كريم بولادي

إن الغاية من تنزيل القرآن الكريم الذي هو مصدر هداية الناس جميعاً إنما هي تنظيم حياة الإنسان الدنيوية والأخروية. وحسب ما جاء في البيان الإلهي قوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ...﴾ (النساء: ١٠٥)

فإن القرآن الكريم قد أنزل ليكون موجهاً لسائر ميادين الحياة. وإذا أردنا أن نجعل هذا الكتاب الحكيم الذي هو كلام الله تعالى كتاب حياة فينبغي أن نقوم قبل كل شيء بفهمه فهماً صحيحاً. فما من مجتمع جعل القرآن مرشداً ودليلاً لحياته، ونجح بفهمه قدر استطاعته إلا ورفعه القرآن وسما به بين المجتمعات، ولم يخذل القرآن مثل هذه المجتمع أبداً.

يقول الكاتب الفرنسي تشارلز ميسمر (Charles Mismer) الذي أقام في اسطنبول لسنوات طويلة: "كيف يمكن أن يُنسب سبب تخلف المجتمعات الإسلامية اليوم إلى الإسلام بعد أن كان القرآن العامل الرئيسي والوحيد لحضارة دامت ألف عام وبلغت قمة الديمقراطية، والشمول، والرقي والمدنية والتقدم والتي لم يُر مثلها على وجه الأرض إلى اليوم!".

إن ما يقوله ميسمر يشير إلى أن المسلمين يعانون من ضعف وجهالة حقيقية خطيرة في فهم القرآن الكريم. فالمسلمون في العهود التي فهموا فيها القرآن الكريم بشكل صحيح، وعرفوا قيمة وأهمية هذه النعمة جيداً كانوا دائماً في مقدمة المجتمعات وكانوا أمة ناجحة مهابة الجانب لها اعتبارها ووزنها. ولن يفلح المسلمون الآن في القضاء على ما يسود العالم الإسلامي من مظاهر الاضطهاد والظلم، والتخلف من دون فهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً، وجعله منهج ودليل حياة.

إن القرآن الكريم يقدم للإنسان العقيدة التي تقوم على وجود الله ووحدانيته، ومبدأ العبودية لله تعالى، ويؤمن له الارتباط بإخلاص وصدق بدين الله تعالى. والقرآن الكريم يجعل من المؤمنين شخصيات بناءة، ومُصْلِحة، وفعَّالة، ومبادرة، ونشيطة، ومفعمة بالطاقة والحيوية. ويقدم القرآن للمؤمن من خلال نفحات الرسائل الإلهية العزَّة الباعثة للحياة والأمل مثل:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)

﴿... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ (المنافقون: ٨)

حيث يكوِّن له قوة الشخصية، والثقة بالنفس، والحياة العزيزة الكريمة.

لقد سما القرآن الكريم على مر التاريخ بأتباعه جميعاً، ولم يقتصر ذلك على العرب فقط. فقد كوفئت كافة الشعوب والأمم التي قبلت الإسلام ديناً بالقوة، والعزة، والتفوق الحضاري الناصع والتطور طيلة المدة التي التزمت فيها بالقرآن الكريم وجعلته دستور حياتها. فقدم العرب، والأتراك، والفرس، والهنود بعد اعتناقهم الإسلام حضارات ومدنيات أدهشت العالم على مر القرون.

القرآن الكريم مصدر شرف للإنسانية جمعاء. فما نال الذين أحبوه، واحتضنوه، والتزموا بأحكامه، وتمسكوا به من صميم قلوبهم إلا السمو والرفعة والشرف. وقد أكد هذه الحقيقة القرآن الكريم، حيث يقول الله ﷻ:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٣- ٤٤)

إن وجود مثل هذا الكتاب الذي تولى الله تعالى حمايته وحفظه لهو لطف وإحسان عظيم للبشرية بأسرها. فالقرآن الكريم يُعد بشرى، وهداية ورحمة لجميع المؤمنين والصالحين ، ويجب أن يعي ويدرك الإنسان أن معرفته بهذا القرآن،، وتلقيه خطابه إنما هو سعادة عظيمة ما بعدها سعادة.

القرآن الكريم هدى لمن يتقون الله ﷻ ويخشونه، ويقدرونه حق قدره. والقرآن كتاب رحمة. فلن تجد الإنسانية الحياة والنماء والسمو دون قطرات الرحمة التي يمطرها القرآن المنزل على محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين . فالقوة الوحيدة التي من شأنها الوقوف كسد منيع أمام سائر الفلسفات والأفكار الهدامة التي تفسد فطرة الإنسان، وتشوهها، وتضله عن الصراط المستقيم إنما هي دستور القرآن.

إن كانت البشرية قد نجحت على مر التاريخ في تأسيس حضارات ومدنيات مختلفة فإنما هي مَدِينة في ذلك للكتب المقدسة ذات المصدر الإلهي عامة، وللقرآن العظيم خاصة.

لا تحصل العزة للمؤمنين والنصر على الأعداء والتمكين في الأرض مشروط بقيامهم بما أوجب الله عليهم بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ، والعمل بالإسلام والإيمان ظاهراً وباطناً ،

فهذه الحقيقة هي أساس كل الحضارات، ومظاهر الرقي والصعود لدى الأمم، والفضائل الأخلاقية، وسائر الفعاليات والأنشطة التي تليق بشرف وكرامة الإنسانية.

لما صار القرآن الكريم هادياً ومرشداً للشعب التركي، قدموا أعمالاً وإنجازات خالدة. ونريد أن ننقل هنا صورة توضح لنا هذا الجانب. أثناء تجوال يحيى كمال بياتلي (١٨٨٤/ ١٩٥٨) في قصر طوب كابي لم يستطع إخفاء دهشته وإعجابه أمام المناظر والحقائق التي شاهدها هناك. ولما زار جناح روان (Revan) في قصر طوب كابي سمع صوت تلاوة القرآن يأتي من بعيد. فأخذ يتجه نحو ذلك الصوت، وسأل الدليل الذي يرافقه عن مصدر هذا الصوت. فأجابه الدليل أنه

لقد سما القرآن الكريم على مر التاريخ بأتباعه جميعاً، ولم يقتصر ذلك على العرب فقط.
فقد كوفئت كافة الشعوب والأمم التي قبلت الإسلام ديناً بالقوة، والعزة، والتفوق الحضاري الناصع والتطور طيلة المدة التي التزمت فيها بالقرآن الكريم وجعلته دستور حياتها.

صادر من دائرة أو مبنى البردة الشريفة. ودعونا نستمع إلى ما يقوله بالذات عما حدث بعد ذلك:

"وقفنا أمام نافذة من الطراز التركي لغرفة خضراء كالجنة حيث يحتفظ فيها ببردة نبينا عليه الصلاة والسلام. كان في الغرفة حافظان. أما الأول فكان يجلس مكتوف اليدين، ومغمض العينين. وأما الآخر فكان جالساً على ركبتيه، ويتلو بصوت مرتفع وخاشع. فسألت دليلي السيد لطفي: متى تتم قراءة ختمة القرآن عند البردة الشريفة؟ فتبسم السيد لطفي، وهمس في أذني قائلاً: كل يوم، وكل ساعة، وكل لحظة! إنه يتلى منذ أربعة قرون ليلَ نهارَ دون توقف!. لقد كنت من الدهشة والتعجب أستمع وأنا مغمض العينين. ثم قدم السيد لطفي بعض المعلومات، فقال:

"لقد جلب السلطان ياوز سليم البردة الشريفة وباقي الأمانات المقدسة التي هي علامة الخلافة من مصر إلى اسطنبول، ووضعها في مكان مرتفع داخل القصر منذ ليلة وصولها إلى اسطنبول. وبينما كان المعماريون منكبون على تجهيز المكان الذي سوف توضع فيه الأمانات كان السلطان واقفاً ينتظر انتهاء العمل بفارغ الصبر، وبقي كذلك حتى الصباح رغم تعب السفر. وفي تلك الآونة تم تنظيم برنامج وإحداث وظيفة لتلاوة القرآن الكريم عند البردة الشريفة ليل نهار دون انقطاع، وتم تعيين أربعين حافظاً للقيام بهذه المهمة على أن يكون هو بالذات واحداً منهم. ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن يتلى القرآن في هذا المكان دون توقف ولو للحظة واحدة. وعدد الحفاظ الآن أربعون حافظاً يتناوبون فيما بينهم بشكل ثنائي. واليوم هذان الحافظان هما المناوبان".

لقد قطع السلطان مسافة آلاف الكيلومترات وهو على رأس جيشه متجهاً من مصر إلى اسطنبول، ثم أصرَّ على الانتظار، وعدم مفارقة الموقع ولم يأخذ قسطاً من الراحة قبل تجهيز موضع لائق بالبردة الشريفة، ألا يستحق هذا الموقف التوقف والتأمل؟. ألا يدل التحاقه بحلقة الحفاظ، واشتراكه مع فريق الختم حيث هو أحد الحفاظ، ألا يدل على إخلاصه، وتواضعه، وتعظيمه للقرآن؟ ألا يزاح الستار بذلك عن سر حكم العثمانيين للعالم؟

ويتابع يحيى كمال حديثه، فيقول:

"بينما أكتب هنا في هذه الليلة، وفي هذه الساعة هذه السطور يرتفع صوت تلاوة القرآن في موضع البردة الشريفة! وبينما أنتم تقرؤون سطوري هذه، يُتلى القرآن الكريم في موضع البردة الشريفة! إنه لا يزال يتلى دون توقف منذ أربع مائة عام".

عندما كان يحيى كمال يسطر كلامه هذا، وعندما كانت هذه السطور تُقرأ ذاك اليوم، كانت تلاوة القرآن القائمة في موضع البردة الشريفة منذ أربعة قرون تشق طريقها نحو المستقبل. نستنتج شدة تأثر يحيى كمال بهذه الحادثة من كلامه حيث يقول:

"إن هذه الفكرة لا تزال منذ ذلك اليوم تخفق في ذاكرتي مثل عقرب الساعة. منذ ذلك اليوم شعرت كم كانت للخلافة مكانة مهمة وتأصل عظيم في قلب الأتراك. إذ لم أكن أعلم من قبل أن صوت القرآن كان يعلو دون توقف منذ أربعة قرون في مثل هذا المقام في اسطنبول مركز الخلافة. ولا يعرف هذه المسألة الكثير من الأتراك، بل الكثير من سكان اسطنبول. ولم يستطع كل ما جرى على هذا القصر من أشكال الثورات والاضطرابات، وعزل السلاطين إسكات صوت القرآن الذي ما يزال يصدح منذ أربعة قرون. وبعد إدراكي واطلاعي على هذه الحادثة صرت وكأني وجدت الجواب عن شبهة أو تساؤل: لم لا نُخرج من اسطنبول ونفقدها؟".

بعد تصريح يحيى كمال وبإخلاص وصدق وشجاعة عن عدم علمه بوجود ختم القرآن الكريم عند البردة الشريفة والمستمر منذ أربعة قرون حتى زيارته التي قام بها لقصر طوب كابي، فإنه يؤكد أن هناك الكثير من الأتراك بل الكثير من سكان اسطنبول نفسها لا يعرفون هذه الحقيقة. وإن إشارته إلى فهمه لسبب عدم خسارتنا اسطنبول وتخلصه من شبهته حول هذا الأمر بعد اطلاعه على هذه الحقيقة بغاية الأهمية. وإننا بدورنا اليوم إما أن لا نعرف القيمة التاريخية لتلك الأماكن المباركة، أو نعرفها من الآخرين. فنحن ما زلنا لم نبعد الشبهة من عقولنا. ولعلنا لا نزال نعاني من صعوبة فهم وإدراك أن تحول الدولة العثمانية إلى دولة عظمى وصاحبة الكلمة الفصل في العالم إنما كان بسبب احترامهم وتعظيمهم للقرآن. ويتابع يحيى كمال الحديث عن انطباعاته في قصر طوب كابي، فيقول:

"لقد اكتشفت حقيقة عظيمةً خلال جولتي. وهي أن لهذه الدولة أساسان معنويان، الأذان الذي أمر برفعه الفاتح من منارة آيا صوفيا والذي لا يزال يُرفع. وتلاوة القرآن الكريم عند موضع البردة الشريفة التي قررها ياووز سليم، والتي لا تزال مستمرة. فيا جنود أسكي شهير، وأفيون كارا حصار، وقارس! إنكم ناضلتم وجاهدتم في سبيل شيء عظيم بهذا القدر من الحسن والجمال".

أجل؛ إن القرآن أساس هذه الأمة وسبب وجودها. والنبي ﷺ الذي بلغ القرآن هو حبيب هذه الأمة. وقد حافظت هذه الأمة على أمانتي القرآن والسنة اللتين تركهما لها بأرواحها وأموالها، وقدمت في سبيل خدمة هاتين الأمانتين مختلف أشكال التضحيات.

ومن جانب آخر فإن هذه الأمة قد جعلت أشياء النبي ﷺ الشخصية تاجاً على رأسها، وحفظتها في أفضل المقامات، وتعاملت معها بمنتهى الاحترام والتبجيل. وكما قال يحيى كمال فإن هذه الأمة تحافظ على وجودها بوجود هاتين الأمانتين المودعتان لديها.

من خصائص الإسلام الرئيسية

التفاؤل والأمل (٦)

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾

الدكتور: مُراد كَيا

يريد الإسلام من الناس أن يكونوا متفائلين، يقول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ (الأعراف، ١٥٦)

وعن أبي هريرة ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:

"لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى العَرْشِ: «إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»" (البخاري، التوحيد ١٥/ ٧٤٠٤)

وهذه العقيدة كافية ليكون المسلمون متفائلين، ومن ناحية أخرى فإن فضائل حسنة كالعفو والرحمة والصبر والتوكل والإذعان والرضا وحسن الظن تريح المسلمين في الحياة، وإن للمصائب والمحن والأمراض في تكفيرها للذنوب ورفعها للمنزلة المعنوية دوراً مهماً فيما يتعلق بتخفيف ثقل الحياة الدنيا. ومن المستحيل أن يغتم مؤمن بعد قيامه بما يجب عليه ويستسلم بعد ذلك إلى القضاء والقدر، والراضي بكل ما هو آت من الله تعالى يعيش سعيداً في حياة ملؤها السكينة والطمأنينة.

وأما بشأن غير المسلمين والمذنبين فإن باب التوبة مفتوح على مصراعيه ويمكن للإنسان أن يؤمن أو يتوب متى شاء ما لم تظهر أمارات الموت وعلامات القيامة، ولكنه وبما أن كلاً من الموت والقيامة يتخطف الناس فجأة فعلى الناس فوراً التوجه إلى الله تعالى قبل ضياع الوقت. يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ...﴾ (الزمر، ٥٣)

لقد منع النبي ﷺ الناس من التشاؤم من بعض الأشياء وجعلَ النظرَ إلى الأمور بتفاؤل وحسنِ ظنٍ وتأويلها بالخير أساساً[١]. وينصح الإسلام الناس بتجنب سوء الظن ويحثهم على حسن الظن بالآخرين دائماً، يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ...﴾ (الحجرات، ١٢)

فالمسلمون هم الذين يستقبلون المصائب من الله تعالى بالصبر ويتمنون الأجر منه بعد اتخاذهم الأسباب. وإن المسلمين لا يقنطون من رحمة الله أبداً إضافة إلى خشيتهم من سخطه فهذا ما يُفسَّر توازناً بين الخوف والرجاء. وأما عند اقتراب الموت فيزداد شعورُ حسنِ ظنِّهم بين يدي الله ﷻ. قال رسول الله ﷺ:

"لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ﷻ"

(مسلم، الجنّة، ٨١ – / ٢٨٧٧؛ أبو داود، الجنائز، ١٢-١٣/ ٣١١٣)

وبالنظر إلى الناحية المادية فليس من الممكن أن يكون المسلمون متشائمين، إذ قدّر الله جل وعلا رزقَ جميع البشر كما قال في الآية الجليلة:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ...﴾ (الأنعام، ١٥١)

لا بد لكل إنسان من الحصول والوصول إلى رزقه المقدر له، ولذلك يجب عدم التشاؤم في هذا الشأن بل التمسك بالأسباب اللازمة في توفير الرزق وينبغي أن نقنع بما قسمه الله من الرزق، من غير أن نقول عنه: إنه قليل أو كثير، بعد العمل على نحو شريف والقيام بما في الوسع، وعليه استخدام الرزق بما يرضي الله تعالى.

١. انظر: البخاري، الطب، ١٩؛ مسلم، السلام، ١٠٢؛ أبو داود، الطب، ٢٤.

التصوف موقد التربية

الدكتور:آدم أركول

إن التصوف يُعد موقد التربية، حيث يصير فيه الإنسان الخام إنساناً كاملاً. لكن هناك صفات ينبغي أن تكون في المرشد والمريد، فأما المرشد فمن المهم أن يكون متمتعاً إلى جانب صفة "الكامل" بصفة "المكمِّل"؛ أي "أن يكون أهلاً للإيصال إلى الكمال". وأما المريد فمن المهم أن يكون صدقه، وإخلاصه، وتصميمه، وهمَّته؛ أي استعداده وملكته بقدر ما لدى المرشد. إن هذه الصفة التي تُراد لهذين الطرفين التمتع بها غير قابلة للتحقق دائماً لدى كل إنسان بالحد المطلوب. ولهذا يمكن القول بأن في الأمر جانب قدري، فهي مسألة حظوة قد يحظى بها الإنسان.

فما أكثر المرشدين الكاملين الذين جاؤوا إلى هذه الدنيا إلا أنهم لم يجدوا حولهم مريدين يتمتعون بالاستعداد الكافي، وفي نهاية المطاف أُغلقت مواقدهم. وبالمقابل ثمة قلوب كثيرة مستعدة للتربية والتدريب، إلا أنها لم تتمكن من العثور على الكامل والمكمِّل الذي تسلم نفسها إليه. إن كل إنسان مكلف بعد أداء المهمة الملقاة على عاتقه وإظهار الصدق والجهد المطلوب، بالقبول والرضا بما قسمه الله تعالى له وبصرف كل طاقته في سبيل ذلك.

إذا ما نظرنا إلى التاريخ نجد بأنه من النادر ظهور المرشدين الكاملين والمكملين عبر العصور أمثال الإمام أحمد السرهندي الرباني وخالد البغدادي الذين ربوا وأعدوا المئات من المريدين الكاملين. وها هو سلطان العارفين محمود سامي رمضان أوغلو – رحمه الله – واحد من هؤلاء السعداء المحظوظين.

يقول صاحب الوفاء موسى أفندي – رحمه الله – الذي يُعد خير خلف له:

"أحياناً يصير الإنسان كاملاً، إلا أنه يعجز عن نقل كماله وجماله هذا إلى غيره. وقد يكون

الإنسان صالحاً وجميلاً، إلا أنه يُعد ناقصاً من هذه الجهة التي ذكرناها. لأنه ينبغي مشاركة الجمال والإحسان الذي تفضل الله به علينا مع العباد الآخرين، والعمل على أن نكون وسيلة لجعلهم أيضاً من أهل الحق. ما أكثر الإخوة من ذوي الاستعداد الذين رباهم شيخنا وأستاذنا سامي أفندي، ولربما كان سامي أفندي أحد كبار المرشدين الكاملين الذين لا يظهر واحدهم إلا كل قرنين أو ثلاثة. لقد صار سامي أفندي وسيلة لتربية الكثير من الأولياء الصالحين الذين ربما لا يُحصى عددهم أمثال السادة عبد الواسع ميرزا طاش، وكمال يتكين، ومحمد راستكلدي، ومحمد لكسيز، وعبد الرؤوف كامر، و...".

ينقل لنا السيد عبد الله سرت إحدى ذكرياته، فيقول: "كنت في السبعينات من القرن الماضي أعمل موظفاً في الأوقاف. وذات مرة طلب خبير الأرشيف أكرم أوجاكلي- الذي كنا نعمل معه سوياً- مني أن آخذه لزيارة صاحب الوفاء موسى أفندي. وكان السيد أكرم أوجاكلي من أقرباء داده باشا أفندي الذي يُعد أحد كبار رجال الطريقة النقشبندية في مدينة بايبورت التركية، وعضواً سابقاً في البرلمان. تم تحديد موعد للزيارة، وحضر في اليوم والساعة المحددة. فالتقوا لمدة من الوقت وحدهما في إحدى غرف المتجر. كان السيد أكرم إنساناً في غاية اللطف والرقة. وسُر كثيراً بهذه الزيارة، وما إن خرج من غرفة الزيارة حتى أمسك بيدي وقال:

(يا عزيزي، أي إنسان هذا - ويقصد سامي أفندي - وأي مرشد مكمل هذا حتى تمكن من تربية مثل هذا الابن الكامل- يقصد موسى أفندي- بهذه التربية. لا يمكن أن يربي مثل هذا الإنسان إلا المرشدون المكملون. إذ أحياناً لا يكفي أن يكون الإنسان مرشداً كاملاً حتى يقوم بالتربية)".

ويقول سامي أفندي: "إن ما يلزم السالك على الطريق الروحاني هو التأدب بآداب الأنبياء والأولياء الصالحين. فينبغي أن يخطو خطوته الأولى في هذا الطريق بالوجه الذي أُمر به. وينبغي أن يلتزم بصورة تامة برعاية الأمانة، وبالبقاء على الاستقامة. وينبغي أن يؤدي لكل صاحب حق حقه، وأن يلزم نفسه بأدق الموازين. فإذا راعى الإنسان هذه الأمور فإن الله تعالى يقبله عبداً من عباده الصالحين، ويعزه في الدنيا والآخرة. وأما إن غدر وظلم، وخان وتكبر، ثم تجبر، فإن الله يطرده عن بابه، فيذله في الدنيا، وينتقم منه في الآخرة، ويدخله في زمرة المحرومين من رحمته. إن الذي لا يدرك عفو الله ﷻ وفضله يعيش في الدنيا شقياً، ويموت شقياً، ويُحشر يوم القيامة شقياً".

كان سامي أفندي طيلة سنوات حياته يقف عند موضوع القلب في أغلب كتبه، والأكثر من ذلك في مجالس دروسه، حيث لم يكن يخلو مجلس من مجالسه تقريباً من ذكر القلب وتطهيره، إذ يقول: "ينبغي الانتباه إلى هذه الأسس من أجل تطهير القلب، فالقلب محل نظر الله".

نحاول أن نبين هذا النهج ونشرحه للناس في كل مكان نذهب إليه. هذا النهج الذي يعني أولاً الاعتقاد بعقيدة أهل السنة المستنبطة من الكتاب والسنة، ثم العلم بأحكام الشريعة التي تمثل حياتنا، ثم العمل بهذا العلم، ثم بعد ذلك تزكية النفس وتطهير القلب، والتي تعني تنقية النفس من كل الصفات والخصال السيئة، وإيصال القلب إلى حالة من الصفاء يصبح فيها أهلاً ليكون محلاً لنظر الله ﷻ.

نعوذ بالله تعالى من هذه الحال، ونسأله أن يحيينا مؤمنين، ويتوفانا مؤمنين، ويبعثنا مؤمنين، ويحشرنا في زمرة الصالحين.

د. إسماعيل لطفي جاكان

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

إن منطقة الأناضول أرضٌ إسلامية إلى جانب إنتاجها الكثير من المنتجات، واحتضانها العديد من الحضارات، فهي مباركة بالقلوب الصافية النقية الحية التي تنبض في عروقها. وإن خير شاهد ودليل على هذه البركة التي أشرنا إليها هؤلاء الرجال الأعلام من أهل الفضيلة والعلم الذين تعلموا ونضجوا وتخرجوا من حلقات العلم والعرفان ومن مجالس الصحبة التي شكلتها وعقدتها في كل زمان ومكان هذه القلوب الصافية النقية، وهؤلاء الروَّاد السادة الكبار الذين زكت نفوسهم وصقلت عقولهم.

إن هذه القلوب الصافية النقية من أمثال يونس امره، ومولانا، والأدابالي، وحاجي بكداش، وحاجي بيرم، وآق شمس الدين الذين طبَّقت شهرتهم وتأثيرهم الآفاق كما أنهم صاروا مقصداً لطلاب الحقيقة ومصدراً للأنوار في كل مكان حلوا فيه، وقد شكلوا الغنى المعنوي الحقيقيَّ لأرض الأناضول ولا يزالون كذلك.

ولعل الأبحاث التي تجري في هذا الاتجاه في المناطق المأهولة بين الحين والآخر تضيف أسماء جديدةً إلى هذه القائمة من مثل هذه القلوب الصافية النقية والمتواضعة.

إن أصحاب هذه القلوب الصافية النقية الحية الذين أحبهم من حولهم، وهم معرفون في البلاد، ومشهورون عالمياً، والذين لا يعلم بأحوالهم ومقامهم إلا الخالق سبحانه وتعالى إنَّهم قد ثبتوا على الحق والحقيقة دون مبالاة بمجرى الحياة، ولا بالمخاوف والأهوال التي تعترض طريقهم، فكانوا من هذه الناحية مصدر إرشاد على الدوام لكل من حولهم.

وقد سعوا جاهدين بصدورهم الرحبة الواسعة، وقلوبهم الدافئة على بث الحرارة والدفء في المجتمع الذي أثر فيه العلماء بأقلامهم، والأمراء بقراراتهم وتشريعاتهم، وصعدوا به نحو الكمال.

فقد صارت مجالس الصالحين بالنسبة للناس مثل الشمس بالنسبة للحياة فهي مصدر صفاء وانبعاث من الغفلة بكل ما للكلمة من معنى.

وكما كان يؤكد شاعر الفضيلة المرحوم محمد عاكف في "الصفحات" فإن المعرفة، والفضيلة، والسعي والجهد إذا ما صار ذلك سبباً ومؤشراً على تقدم وفضائل المجتمعات وأصبحت هي الأسس التي لا بد منها فلا شك أن هذه المحاسن والمزايا هي التي تشكل أساس الإيجابيات التي ينميها ويبثُّها أهل القلوب الصافية النقية والحية فيمن حولهم عن طريق حلقات المحبة.

إن الرجال من أهل المعرفة، والفضيلة، والمبادئ الثابتة، والاعتدال، والسعي، الذين يرغبون بالسمو والارتقاء هم من آثار ونتاج الصلحاء والفضلاء، ومن ثمار غراس أصحاب القلوب الصافية النقية الذين أصلحوا نفوسهم في البداية وهذبوا اخلاقهم. إذ أن المعرفة، والفضيلة، والسعي والمجاهدة لا تُزرع في الحقول، ولا تُشرى من الأسواق، وإنما تنتجها وتنميها الأيادي العارفة، والألسن الفاضلة، والقلوب المخلصة، ينتجها الرواد والأئمة المخلصون الذين يعملون بعلمهم (العالم العامل المخلص).

يشير البروفيسور الدكتور محمد كابلان Mehmet Kaplan في كتابه حلم تركيا الكبيرة إلى أن شعبنا العزيز بعد أن تشرف بشرف الإسلام أنتج نموذج المجاهد الذي تولى مهمة فتح البلاد وحمايتها، ونموذج الولي الذي تولى مهمة نشر الطمأنينة والسكينة والسلام في هذه البلاد. ثم يقول:

"إنني أتخيل وأحلم بنموذج إنسان يخرج من قرى وبلدات الأناضول فيعاني من سائر أشكال الحرمان والمعاناة والألم التي يعاني منها شباب الأناضول ولكن لم يهن ولم يستسلم، نموذج يولي أهمية عظيمة للتراث والثقافة، ويكثر من القراءة والمطالعة، وينهي دراسته الجامعية، ويقدر على إقامة وبناء العلاقات الإيجابية الناجحة، ثم يعمل بالتدريج على تغير محيطه عبر استخدام كل من قلبه وذكائه".

وبعد ذلك يعبر عن قناعته فيقول:

"إنني أؤمن أن تركيا سوف تنهض من جديد بهذا النموذج من الناس، لا بالاحتلال والسيطرة".

إن القلوب الصافية النقية – المشار إليها في الأعلى – والتي يجب النظر إليها على أنها "حسن حظ كبير لبلادنا"، قد أحدثت تطوراً وتميزاً كبيراً من حيث القيم الإنسانية والإسلامية، وهذه حقيقة يمكن رؤيتها وملاحظتها بالعين في كل مكان وكل منطقة حلت فيها. والحقيقة المؤسفة والمؤلمة هي أن الناس في البلدان المحرومة من أمثال هؤلاء الأئمة المرشدين لا يزالون يعانون من الانحرافات والخيبات الاجتماعية، ومن الفساد الأخلاقي، ومن ضلال القلوب وتكدرها.

إن مستوى نضوج أئمة المجتمع ومرشديه وقادته يأتي على رأس قائمة الأسباب المؤثرة في انتشار الحالة الاجتماعية السلبية أو الإيجابية التي أشرنا إليها. وفي الحقيقة ينبغي النظر إلى السلبيات والإساءة التي يتسبب بها المحرومون من الفضيلة والصلاح والتقوى والذين – مع الأسف – يسيؤون استغلال حاجة المجتمع ليبثوا فيه سمومهم، وهم يرون أن الفضائل والتدين "حظٌّ عاثرٌ وبلاء عظيم".

إن إثم مثل هؤلاء الناس وتفريطهم مسؤوليتهم وإجرامهم من أقبح الآثام وعاقبتهم وخيمة للغاية،

وذلك أنهم بالإضافة إلى ذنوبهم وخطاياهم في المجتمع يصبحون سبباً أو وسيلة لفساد الأخيار وانحرافهم عن الحق إلى الشر والباطل أيضاً. ويبدو أن المثل القائل: "إن ضرر الإنسان الواحد السيِّء يعمُّ سبع قرى". هو تحذير وتنبيه إلى بذل المزيد من الجهد وإبداء المزيد من الحرص والحذر في الأعمال والأنشطة الهادفة إلى ترقية المعنويات، وتطهير وتنقية القلوب حتَّى لا تقبل أدنى شائبة أو تكدر. فأصحاب القلوب المريضة، والمحرومون من المعرفة والعلم والوعي يقومون بنشر علوم هي بالجهل أشبه وبإرشاد صادر عن جهل وعدم معرفة، وهم يقومون بدور الضال والمضل في المجتمع وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً، ومن ثم فإنهم يتحملون وزرهم ووزر أتباعهم ممن أضلوهم.

ومن جانب آخر ينبغي أن نعلم أنّ الذين الذي لم يبلغوا المستوى والمرتبة الرفيعة في العلم والمعرفة، ولم يتحققوا بالصلاح والكمال إنما يهيِّئون بأفعالهم الجوفاء الصادرة عن جهل وهوى الأرضية المناسبة لصدور مختلف الاتهامات والانتقادات والافتراءات من أطياف المجتمع التي لم تبلغ درجة من المعرفة والعلم، والوعي، والقدرة على التمييز والإدراك في ميدانهم خاصة وفي الميادين الأخرى عامة. وإن هذا العبث لا داعي له حيث يصبح من جهة سبباً لإصابة محيطهم بالضيق والكدر والألم، ومن جهة أخرى يتسبب بوقوع الطرف المقابل في المعصية من خلال الاتهامات والغيبة التي تصدر عنهم. وإن سبيل التخلص من مثل هذا العمل وإثمه وعواقبه يكون بابتعاد الإنسان عن الخوض في أمور ومسائل لا علم له بها وليس هو بأهل لخوضها. فينبغي أن لا يثير فضول رغبة المجتمع الغير واع الذي لا خبرة له ولا تجربة، ولاً يثير حب الشهرة والقيادة أحداً ليستلم القيادة المعنوية وليس هو أهلاً لها. فالجانب الأخروي للمسألة أعظم وأخطر من جانبها الدنيوي، إذ إنَّ هذه المهمة تستهدف الآخرة أكثر من الدنيا.

إن كان التسبب بهداية رجل خير للإنسان من الدنيا وما فيها، فإن التسبب بانحراف مسلم عن الصراط المستقيم، إلى طريق الضلال من حيث الاعتقاد والعمل من شرّ الأعمال الشيطانية.

إن إرشاد الأئمة العلماء الصالحين الصادقين أو وعظ أصحاب القلوب الصافية النقية لهو إرشاد ناجحٌ له تأثيرٌ واضحٌ يسهم في سير رحلة مجتمعنا ورحلة أمة محمد نحو السعادة في الدارين.

وإن التوفر الدائم لمثل هذا الإرشاد الذي يتضمن معنى بناء حياة على مبدأ الكتاب والسنة، وهو من جهة حاجة أساسية لهذه الأمة، ومن جهة أخرى حسن حظ عظيم لها، من حيث العمران والعلم معاً.

قال ابن القيم رحمه الله:
القلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرئاسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله.ولا تتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحدة منها أنواع كثيرة، تتضمن أفرادا لا تنحصر. ولذلك اشتدت حاجة العبد، بل ضرورته، إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها.(الجواب الكافي لابن القيم،١٥١)

لا يمكن من دونك

نسليهان نور تُرك

رجاؤنا وأملنا أن نكد ونجهد ويتصبب الجبين عرقاً
في سبيلك وعلى نهجك حتى الموت يا حبيبنا يا رسول الله!!

أسود العينين، وردي البشرة كأنه وردة جورية. في شعره جعودة كأن شعره أمواج البحر، معتدل القامة. تعجز أقلام الكتاب وأرياش الفنانين عن وصف ورسم جماله. ولا يعبر ذم القادحين فيه، ولا يكشف إلا عن حقيقة واحدة ألا وهي إظهار قبحهم وكشف عوراتهم.

أسنانه كأنها لآلئ مضيئة، وحاجباه كأنهما الهلال. ونظراته النورانية تشع بالرحمة والشفقة، وتنشر السلام والسكينة أينما توجهت. وأما أولئك الذين لا تخرج من أفواههم العفنة إلا الكراهية له، ويبحثون بنظراتهم الحاقدة عن أي زلة أو خطأ فيه فلا يكشفون إلا عن حقيقة واحدة، ألا وهي عماهم.

ولا يكشف أولئك الذين لا يتوقفون بحيلهم وأفعالهم الشيطانية عن إثارة الفتن، وتشويه شخصيته وسمعته العطرة رغم خاتم النبوة المطبوع على كتفه المبارك، ورغم الأفكار النيرة التي نشرها، والعقيدة السليمة التي جاء بها وبلغها، والأوصاف والخصال العلوية التي أكرم بها، لا يكشفون إلا عن حقيقة واحدة، ألا وهي تقلبهم في ظلام الجهل والحقد.

ولا يعبر أولئك الذين لا يتوقفون عن إحداث البلبلة والضجيج من حوله اتباعاً لأهوائهم النفسانية رغم سيرته العطرة، ونوره الساطع، ورغم أن العالم بأسره مدين له بوجوده، ورغم أنه ليس في هذا الكون من كائن إلا ويعرفه؛ لا يعبرون إلا عن حقيقة واحدة ألا وهي قبح ضمائرهم.

ولا يكشف أولئك الذين دأبهم الافتراء على ذاك النبي العزيز الكريم، وتحريف كلامه والسخرية منه رغم عدالته المطلقة في مواقفه الثابتة، واحتياج الأمم جميعها إلى شفاعته، ورغم وقاره الذي لا مثيل له في مشيته، ونظراته، وتقاسيم وجهه وسائر أحواله؛ لا يكشفون إلا عن حقيقة واحدة ألا وهي اعوجاجهم وانحرافهم.

إننا نذكِّر أولئك الذين يشعرون بالانزعاج يتبرمون من أي عبارة جميلة تحمل المدح والإكرام لنبينا الكريم عليه الصلاة والسلام، مثل:

لك إجلالنا واحترامنا، ولك حبنا وعشقنا، وكل مدحنا وإطرائنا لك! نذكِّرهم أن هناك محبة عميقة له تغلي في باطننا. وكيف لا وهو الذي يحبنا ويتمنى لنا الخير والفلاح، وإذا تعرَّضت أمته للأزمات والمعاناة من الصعاب والمشكلات ثقل وصعب عليه، فهو رؤوف بأمته وحريص عليها. والحمد لله تعالى أن أمته هي الأخرى تحبه وتحرص على اتباعه. فكل جندي من جنود أمته بغض النظر عما به من تقصير أو عيب بحسب طبيعته البشرية يحاول جاهداً القيام بعمل يرضي به نبيه ﷺ ويبيض وجهه. وكل واحد من هؤلاء الجنود يبذل كل ما يملك في وجه أدنى سلوك أو تصرف مسيء لنبيه. لذا فإنه لا يمكن أن يغفل ويلتزم الصمت أمام أي شكل من أشكال الإساءة وقلة الأدب بحق رسول الله ﷺ. إلا أن ذلك لا يدفعه للتهور والإساءة وقلة البصيرة وعمى الفراسة أمام الاستفزازات التي يتعرض لها من الاستجابة لأعمال الشغب والتخريب باسم المظاهرات والاحتجاج على إساءات المسيئين فيقع فريسة بين يد المفسدين ومثيري الفتن.

> إننا اليوم بحاجة أكثر من أي وقت مضى للعودة إلى السنة النبوية والتمسك بها وجعلها تاجاً على رؤوسنا، ودستوراً لحياتنا، وذلك في غرفنا، وبيوتنا، وشوارعنا، وقُرانا، وبلداتنا، ومدننا، ودولتنا، وفي كل ميادين ونواحي الدنيا. إنه الوقت المناسب لأن نضفي على سائر أوقاتنا قيمة من خلال خدمة سنته، وفهم سيرة أصحابه الكرام الذين حفظوا أنفسهم من مكائد النفس والشيطان من خلال اتباع وتقليد كل حال من أحواله المباركة بتسليم ورضا تام.

والمؤمنون يمتلكون الوعي بضرورة الانشغال أولاً بإصلاح أنفسهم، وثانياً بالتمسك بأهداب السنة المطهرة للنجاح في هذا الإصلاح. فالحقيقة الوحيدة التي يكشفها أولئك الذين يستغلون استخدام اسم النبي ﷺ بأفعالهم وأقوالهم لإثارة الفتن في الأمة وبثِّ الفوضى بين أبنائها هي عمى بصيرتهم. فمحاولة إنتاج وصياغة أذان من دون محمد، ومحاولة تفسير القرآن من غير السنة إنما هي إما من عمل مرضى القلوب الذين فسدت عقيدتهم، أو عمل أبواق الشيطان.

والذين يحاولون تمزيق الأمة إلى فرق وطوائف شتى إثارة للفتن بكل ما يملكون من قوة، فيعملون على التفريق بين القرآن والسنة ويدعون التناقض والاختلاف بينهما، ومن ثم الإيهام بتباين موقف القرآن من السنة إنما يطعنون وبكل سفالة الإيمان في خاصرته. والذين يعملون على نشر عقيدة توحيد خالية من محمد بين أفراد الأمة من خلال مقولة "كل من آمن بالله فهم إخوة في الدين" والتي تشبه دس السم في العسل، إنما هم الذين لم يعرفوا الرسول الأكرم سلطان المحبة والرحمة والشفقة الحقيقي.

إنَّ الذين يعملون اليوم على إخفاء الحقيقة عن عيون الأمة من خلال إثارة عواصف الفتنة ووضعهم وسط موجات من غبارها إنما يحاولون قطع الرابطة القوية التي تجمعها مع ذاك النبي ﷺ. ولم يكتف هؤلاء بتشويه سمعة ذاك الإنسان الكريم العزيز الذي أقر بأخلاقه الحميدة والرفيعة أعداء القرآن الكريم أنفسهم، ولم يقفوا عند حدِّ الافتراء عليه، وإنما تجاوزوا كل الحدود، حيث بلغ بهم الأمر درجة رسم صور كاريكاتورية مسيئة له. والواقع وهو أحد الأعاجيب أن كل تلك الأيدي والألسن التي تحاول إظهاره بمظهر سيء وقبيح إنما تُحضر لنفسها نار جهنم.

ثمَّ ترى الذين جعلوا أنفسهم عبدة للمناصب والمال فلا يحركون ساكناً ولا يجرؤون على إنكار تلك الجرأة الحاقدة. وعملهم هذا مبنيٌّ على المفهوم الذي يتخذ النفس معياراً ثم يرى سلوك كل طريق والتوسل بكل وسيلة مباحاً في سبيل الوصول إلى الغاية أو الهدف الشرير بعيداً عن الأمة. وكفى بالآية

الثمانين من سورة النساء تحذيراً لأولئك الذين يقولون آمنا، وفي الوقت نفسه ينحرفون عن المحور الذي وضعه القرآن والسنة معاً.

إن الذين يسيئون إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هم الذين لم يعرفوا أنه الإنسان الذي دعا بالخير لأعدائه حتى الذين رجموه بالحجارة وأدموا جسده الشريف في الطائف. إن هؤلاء ومع الأسف لن يقدِّروا كمال خصاله وحسن أخلاقه؛ إلا أن هذه الأمة صاحبة صدر رحب وقلب واسع، حيث إنها سوف تدعو لأولئك المسيئين لئلا تحرم الأجيال القادمة منهم من نور الإيمان والهداية مثلما حرم آباؤهم. لأنها أمة ذاك الرسول المبارك الذي دل وأرشد أولئك الذين يسيرون بأقدامهم مسارعين ومصرين على ورود نار جهنم فأرشدهم إلى طريق الجنة فتوجهوا نحوها بعشق ومحبة؛ وبلغ أوامر ربه ونواهيه للبشرية جمعاء، هي أمة لا تكسب شيئاً إذا احتراق أحد في النار، ولا تفرح ولا تُسر بعذاب أحد. وكذلك فإن ما يُعد من مقتضيات إيماننا، ويعدُّ ديناً مترتباً في ذمتنا هو حب من يليق بالمحبة، وكره من يستحق الكراهية. وبالإضافة إلى ذلك فإن الناس مكلفون بواجب الصلاة والتسليم على رسول الله عليه الصلاة والسلام، وإنهم إذا ما نهضوا بهذا الواجب نالوا رضا الله وإحسانه؛ ومن أعرض عن الحقَّ وآذى الله ورسوله فإنَّ الله أعدَّ له عذاباً مهيناً في الآخرة.

إذاً؛ فلا ريب أن القلب مهما أثنى على رسول الله عليه الصلاة والسلام ونظم فيه من القصائد والشعار وأثنى عليه بما هو أهله فإنَّ كلَّ ذلك لقليل في حقِّ نبينا محمد المصطفى عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم الذي هو سبب وجودنا، وهو منير دربنا.

دعونا نقول:

إن مشاعر القلوب تتدفق إليك رغم مرور القرون. فأنت الأسمى منذ الأزل والكل أسرى لحبك، وأسرُك للمرء أحلى وأصفى حرية يتوق إليها! وإن القصور الفارهة والفاخرة لتغبط القلوب الأسيرة على ذاك الصفاء. لقد بقي أثر تلك الحصير الدامعة على خدك! وأعلنت عليك الحداد تلك الواحة التي بقي أثر غبارها على قدمك! أنت الذي تذكرك الحجارة، والطيور، والشجر وكل الكون؛ فيا لها من قلوب صدئة في صور أولئك الذين لم يميلوا إليك ولم يحبوك!

ما حبك والعودة إليك إلا بطاعتك وإحياء سننك، بمعرفتك وإدراكك. فهذا أدب نقدمه أمام طاعة الحق سبحانه. ولا يصح الإيمان إلَّا بحبك والاعتراف بنبوتك، ولا يقبل إلَّا عن طريقك! ويل للغافل الذي يجهلك وأنت الذي صلى عليك الله وملائكته، وأنت الذي ناداك المولى ب "يا حبيبي"!. وأنت الذي تعرفك الدنيا، وتعرفك العقبى!

عرفناك يا سيدي "أنت أحمد وأنت محمود"!
عرفناك يا سيدي "أنت الصادق الصدوق"!
عرفناك يا سيدي "أنت أكرم خلق الله"!
عرفناك يا سيدي "رحمة للعالمين"!
عرفناك ياسيدي "كامل الخصال"!
عرفناك ياسيدي "رقيق القلب"!
عرفناك يا سيدي
"أنت الصادق
الصدوق"!

نسأل
المولى
أن يكرمنا
بتقديره حق قدره.
ولنا رجاء وأمل أن نكد
ونجهد ويتصبب الجبين
عرقاً في سبيلك وعلى نهجك
حتى الموت يا حبيبنا يا رسول الله!

العالِم و الأسلوب

خليل إبراهيم دَلَن

تتمثل أساليب الدعوة بالطرق والفنون التي يتخذها الداعي لتوصيل الفكرة للمدعووين، وهي علم يجب تعلمه لمعرفة كيفية الدعوة ولإزالة كافة العوائق التي تحول دون إنجاح الدعوة، ويجب أن تستمدّ هذه الوسائل من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وسيرة الصحابة الكرام، وبشرط أن يكون الأسلوب حكيماً وبالحسنى.

نشاهد بين الحين والآخر مناظرات تجري على القنوات الإعلامية بين العلماء في العلوم الدينية، ونسمع منهم بسبب الخلافات التي تحدث بينهم عبارات وكلمات لا تتناسب مع أدب الاختلاف ولا الحوار. وإننا مع الأسف نشاهد وبكثرة حدوث اختلافات وجدالٍ حتى في المسائل الأساسية والقطعية لدرجة تصل إلى حد الفرقة والتنابذ أحياناً، وفجاجة اللفظ وعنف القول في الحوار، واستخدام الأساليب التي تحتوي على التكبر والتعالي، والتي لا تتناسب ألبتة مع سماحة الإسلام، ولطافته، ولينه.

إن أصولنا العلمية مشهورة بالمناظرات التي تجري بين أهل العلم، ولهذه المناظرات والحوار مكانة مهمة للغاية. حيث كان ينظر إليها بالاحترام والإجلال وقد كان أهل الفضل ينظمون المناظرات العلمية بين العلماء، ويسعون إلى تنظيم مثل هذه البرامج واللقاءات بكثرة. واللافت للانتباه أن هذه اللقاءات والاجتماعات العلمية لم تكن تتحول إلى ساحة صراع ونزاع، ولا إلى فرصة لنيل أحد الأطراف من الآخر والإساءة إليه؛ بل على العكس، حيث كان يتم التعامل أو النظر إلى مثل هذه اللقاءات كما يتبين من اسمها على أنها "نوع من التسوق العلمي في إطار المناظرة".

كان يحدث اختلافات في مسائل متنوعة بين الصحابة أنفسهم. حيث ينقل ابن القيم الجوزي أنه حدث اختلاف بين عمر وعبد الله بن مسعود ﷺ بشأن ما يزيد عن مائة مسألة؛ إلا أن هذه الاختلافات لم تؤثر يوماً على محبتهما لبعضهما، والقرب القلبي بينهما.

وكذلك حدث خلاف بين ابن عباس ﷺ وبين زيد بن ثابت ﷺ بشأن إحدى مسائل الميراث. إلا أن أي واحدٍ منهما لم يسئ في الكلام للطرف الآخر بسبب هذا الاختلاف، وحتى أن زيداً كان إذا التقى بابن عباس يقبل يده، ويقول:

"هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا".

ولما توفي زيد بن ثابت ﷺ، قال ابن عباس ﷺ: "هكذا يذهب العلم!".

لقد أرانا بتصرفه هذا وبصورة وجيزة ومختصرة ومعبرة كيف أن الاختلاف في الرأي والفكر لا يمكن أن يلحق الضرر بالمحبة والاحترام والمودة. فالاختلاف لا يفسد للود قضية.

وإذا ما قلبنا صفحات تاريخنا الإسلامي نجد أن علماءنا السابقين الراسخين في العلم قد أبدوا عناية خاصة للالتزام بحسن الأسلوب واللين في مناظراتهم وعلاقاتهم بين بعضهم البعض. وذلك لأنهم جعلوا شعارهم أن العلم في الوقت ذاته صفة من صفات الله تعالى. وإذا ما صادفنا أحياناً مشاهد سلبية في هذا التاريخ فإن ذلك لا يُعد شيئاً إلى جانب النماذج والأمثلة الجميلة والكثيرة التي تزخر بها صفحاته.

وما يلفت الأنظار ويثير الإعجاب أسلوب النقاش والبحث الذي استخدمه مؤسس المذهب الأشعري الإمام أبو الحسن الأشعري بحق الأشخاص والفرق والجماعات السابقة، وذلك في كتابه "مقالات الإسلاميين" الذي يتحدث فيه عن تاريخ المذاهب. فهو يختار الإدلاء بالرأي الصواب والقول الصحيح، بدلاً من النيل من أصحاب الرأي المخالف وتحقيرهم والتشنيع عليهم، فيقول:

"وليس هذا سبيل الربانيين ولا سبيل الفطناء المميزين".

لأن من شأن الإساءة في الكلام، واستعمال أسلوب الخصومة والنزاع في الحوار والنقاش أن ينتقص من قيمة العلم، وأهل العلم، وفي الوقت نفسه يرخي بغشاء على الحقيقة ويحول دون ظهورها.

وإن الإمام الذهبي عندما يتحدث في كتابه التراجم "سير أعلام النبلاء" عن ابن حزم الذي لا يصوب آراءه وأفكاره، يستخدم العبارات الآتية:

"الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف. ورزق ذكاءً مفرطاً وذهناً سيالاً وكتباً نفيسة كثيرة. إنه رأس في علوم الإسلام متبحر في النقل عديم النظير على يُبسٍ فيه وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول". (انظر: سير أعلام النبلاء، ابن حزم)

ومن الأمثلة الأخرى على الاختلاف في المسائل وأدب الخلاف ما حدث بين الليث بن سعد والإمام مالك، ورسالته التي بعث بها إلى الإمام مالك. حيث يبدأ الليث بن سعد رسالته التي كتبها إلى الإمام مالك وقد كان يختلف معه في المسائل الفقهية، فيقول:

"سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلاّ هو أما بعد: عافانا الله وإيّاك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم، وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه...".

ثم ينهي رسالته بالقول:

"وقد تركت أشياء كثيرة من أشابه هذا، وأنا أحب توفيق الله ﷻ إيّاك، وطول بقائك، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك، مع استئناسي بمكانك وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه، ولا تترك الكتاب إليّ بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك، وحاجة إن كانت لك، أو لأحد يتصل بك فإني أسر بذلك، كتبت إليك ونحن معافون والحمد لله، ونسأل الله ﷻ أن يرزقنا وإياكم شكر

> الاختلاف والخلاف:
> الاختلاف والمخالفة أن ينهج كل شخص طريقاً مغايراً للآخر في حاله أو في قوله. والخلاف أعم من "الضد" لأن كل ضدين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدين، ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يفضي إلى التنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة.

ما أولانا، وتمام ما أنعم به علينا، والسلام عليكم ورحمة الله ".

ومن الأمثلة الجميلة الأخرى على دوام المحبة والمودة، ومشاعر الاحترام بين العلماء رغم وجود مسائل خلافية عالقة بينهم ما قاله المحدث الشهير وأمير المؤمنين في الحديث شعبة بن الحجاج بشأن الإمام أبي حنيفة النعمان عند وفاته:

"لقد ذهب معه فقه الكوفة تفضل الله عليه وعلينا برحمته".

ويروى أن محمد بن قاسم العثماني حضر ذات مرة مجلس الشيخ أبي الفضل الجوهري. وكان مما قاله للناس في المجلس: إن رسول الله ﷺ ظاهَر، فتعجب من كلامه. ولما خرج من المجلس، وانفض عنه الناس انتهز الفرصة المناسبة فدخل عليه، وذكره بكلامه عن ظهار رسول الله ﷺ، وأخبره أن الظهار حرام، ولا يمكن أن يفعله النبي ﷺ. فما كان من الشيخ أبي الفضل إلا أن ضمه إلى نفسه، وقبل رأسه، وأقره على قوله، وقال له: جزاك الله عني من معلم خيراً. ولما كان اليوم الثاني بكّر العثماني إلى مجلسه، فألفاه قد سبقه إلى الجامع، وجلس على المنبر. فلما دخل الباب ورآه الشيخ من على المنبر نادى بأعلى صوته قائلاً:

"مرحباً بمعلمي، أنا معلمكم، وهذا معلمي".

وهناك الكثير والكثير من الأمثلة من هذا القبيل.

إن مناظرات العلماء ومناقشاتهم وحواراتهم شأن علمي، ولمصلحة العلم. إلا أنه ما ينبغي أن تتحول هذه المناظرات إلى احتقار الرأي المخالف والتشنيع عليه، والاستعلاء وإعجاب كل ذي رأي برأيه. وهذا الأمر بغاية الأهمية حتى وإن كان الرأي المقابل خاطئاً. حيث إن الله تعالى يبين أن مثل هذا الأسلوب والفكر الاستعلائي من خصال المشركين، وذلك بقوله في القرآن الكريم:

﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٢)

وعلى ذلك؛ فهل مجال الدين المتروك للعلماء في الأصل هو الخطابات والأخلاق والسلوكيات السيئة مثل الحقد، والحسد، والبغض، والجهالة التي كانت سبباً لتحريف أهل الكتاب (اليهود والنصارى) لدينهم، أم هي نماذج وأمثلة التسامح والمودة، والرفق، واللين لعلماء المسلمين الذين نشؤوا وتربوا على مشرب النبي ﷺ؟

لم يكن الإمام الشافعي -رحمه الله- يجزم بصواب رأيه مطلقًا، إنما كان يقول قولته المشهورة، التي أصبحت دستورًا للمتناظرين من الناحية النظرية، وإن كانت من الناحية العملية أبعد ما تكون عن الواقع، كان يقول: (قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب).

وعلى ذلك فإنه من الأهمية بمكان أن يتبع من يتولى مهمة تبليغ الدين الذي هو ميراث متروك من الأنبياء للعلماء، وتدريس علومه، والدفاع عنه، ومناقشة مسائله أسلوباً ينم عن المحبة، والمودة، والتواضع، والاحترام، وهذه المسألة لا تقل أهمية عن الرسوخ في العلوم الدينية، وتحصيلها بإتقان، والغوص في دقائقها.

وخلاصة القول: قال الأولون:

"قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب".

عدم الإساءة إلى طريق المولى ﷻ

التصوف في جوهره هو الوصول إلى حالة يكون فيها القلب سليمًا، يتلقى فيها المعرفة عن الله تعالى، والمحبة من معينها.

نسليهان نور تُرك

طريق التصوف هو واحد من الطرق السائرة إلى الله تعالى، وموئل لتجليات نوره سبحانه، ولذا لا يُسمَحُ فيه بأي زيغ عن الاستقامة أو مخالفة لدين الله في جوهره وروحه.

وها هو الشيخ بهاء الدين نقشبند وكان من أولياء الله تعالى وأحد علماء الحديث الشريف، الذي ذاع صيته في مدارس بخارى حتى أقبل على دروسه الكثير من العلماء والطلاب والمريدين، حتى اشتكت بقية المدارس من قلة الطلاب فيها، وازدحامهم عند الشيخ بهاء الدين، وضج العلماء – علماء الظاهر– قلقًا من هذا الأمر، فخاطبهم شيخنا بهاء الدين النقشبندي:

«دعوني أخبركم بطريقتنا، وإذا ما كان هناك شيء مخالف للقرآن والسُنة، فأعلمونا كي نكفَّ عنه».

وبعد أن تلقى العلماء أجوبة مقنعة على الأسئلة كلها، واستمعوا له لمدة طويلة، لم يجدوا ما يمكن الحديث عنه فقالوا:

«إنَّ طريقتَكم طريقةُ استقامة (أي وفق القرآن والسُنة)، ولا اعتراض لنا عليها».

وحين قال أحدهم:

«القبعة التي تلبسونها سببٌ للشهرة».

أجاب سيدنا بهاء الدين:

«إذا ما صارت قبعتي موضوع جدل، فإن خلعها أنسب».

ثم خلع قبعته وأعطاها لفقير. وبعد هذه الحادثة ارتفعت مكانة شيخنا النقشبندي لدى العلماء كلهم.

العِبرة:

القرآن دستور أهل الله تعالى، والسُنة منهاجهم، وشرع الله تعالى طريقتهم؛ ذلك هو الطريق الحقيقي للتصوف، وديدن كبار أقطاب التصوف في وصاياهم، وهاهو الشيخ نقشبند ~ ينصح مريديه وينصح كلَّ السالكين بالتزام شرع الله، فهو لم يجادل علماء الظاهر وإنما قال لهم:

«إذا ما كان هناك شيء مخالف للقرآن والسُنة، فأعلمونا كي نكفَّ عنه».

فأوضح بقوله هذا أهمية الاستقامة في هذا الطريق، لهذا على السالكين أن يُظهروا هذه الحساسية نفسها، وألا يعيبوا هذا الطريق الطاهر، ونقصد بالعلماء هنا العلماءَ الصالحين الربَّانيين، لا «علماء السوء» الغافلين الذين فسدت قلوبهم وعلومهم، فساروا عكس الطريق إلى الحق، وانعدم الإخلاص والتقوى لديهم، وأنكروا فضائل أولياء الله تعالى، وباعوا آيات الله مقابل فتات الدنيا.

العقل و القلب

د. عرفان غوندوز

يقول النبي عليه الصلاة والسلام مشيراً إلى مكانة وأهمية القلب في جسد الإنسان:

"ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" (مسلم، ١٠٧/ ١٥٩٩)

واستخدمت كلمة "القلب" في القرآن الكريم بمعانٍ تدل على أنها مركز الإدراك والوعي الموجود في الدماغ. حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الأعراف: ١٧٩)

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)

وكأن الله ﷻ بهذه الآيات القرآنية يصحح أو يعيد تنظيم تصورنا حول مسألة أشكال الإعاقة والأعذار التي تصيب أجسادنا. فالإعاقة الحقيقية التي يعاني منها الإنسان في حواسه ليست تلك التي تكون في العين، أو الأذن، أو اللسان والتي نسميها بـ "العمى، والصمم، والبَكم"، وإنما الإعاقة الحقيقية تلك التي تنتج عن خلل في القلب. فالأصم هو من لا يسمع الحق، والأعمى من لا يرى الحق، والأبكم من لا ينطق بالحق ولا يقول الصواب.

يقول مولانا جلال الدين الرومي عند حديثه عن قصة موسى مع فرعون التي يذكرها القرآن الكريم:

لا تنظروا إلى هذه القصة الواردة في الكتب المقدسة على أنها حادثة قد جرت في الماضي ثم وُضعت على رفوف التاريخ المغبرة. فهذه القصة والصراع الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون حادثة حية ومستمرة تدور وقائعها ومجرياتها داخل كل إنسان.

لقد خلق الله تعالى الملائكة بهدفٍ واحدٍ. وهو تكليفهم بالطاعة المطلقة، فليس لديهم قدرة على المعصية. ولا يستطيع العصيان حتى لو أرادوا ذلك. وكذلك خلق الله ﷻ الحيوانات بمهمة واحدة، فالحيوانات غير مكلفة لكونها لا تمتلك عقلاً. فهي تعيش وتسير في الحياة حسب توجيه غرائزها وشهواتها. وأما طينة الإنسان الذي يُطلق عليه "الوسط الجامع" فمجبول نصفها من الخصال الملائكية، والنصف الآخر من الخصال الحيوانية. وإن بين هذين الجانبين صراعاً مستمراً داخل وجدان الإنسان، شأنه كشأن السلطة الحاكمة ومعارضيها.

ويعتبر الشيخ ابن العربي صاحب كتاب التدبيرات الإلهية في المملكة الإنسانية، يعتبر كل إنسان كدولة مستقلة مختلفة عن غيرها، ثمَّ هو في معرض بيانه كيفية وقوف هذه السلطة الحاكمة في هذه الدولة الصغيرة تجاه الأوامر والنواهي الإلهية يشير إلى صعوبة المهمة من جهة، وإلى ضرورتها من جهة أخرى.

وحينما يقول الأستاذ نجيب فاضل: "إن حالات الهبوط والصعود التي في داخلي لا مثيل لها في الطبيعة"، فإنما يعبر عن أخطر ثنائي كامن داخل الإنسان وهما الخير والشر، وصراعهما على السلطة والحكم فيه. وعلى ذلك فإنه يجب على كل إنسان البحث عن صراع السلطة الحاكمة والمعارضة داخل نفسه، وليس في البرلمانات.

ولعل أهم سبب لإطلاق تسمية "القلب" التي تعني كثيرة التقلب، والتغير، والتحول من حال إلى حال على عضو القلب نابعة من كثرة تغير السلطة الحاكمة المستمر نتيجة هذا الصراع. فالإنسان الذي يغلب المشاعر الحيوانية الكامنة في باطنه، ويمكّن المشاعر الملكيَّة من السيطرة والهيمنة واستلام زمام الحكم يصبح أسمى من الملائكة حتى من جبريل، وأما الإنسان الذي تنهزم في باطنه المشاعر الملكية، وتسيطر الغرائز والأحاسيس الحيوانية فإنه يصبح كائناً خطراً عدوانياً عداوته تصبح أكثر ضرراً من وحش ضار مفترس. فكل إنسان يلتقي في باطنه وجهاً لوجه عدوان لدودان أحدهما يمثل رغبات موسى عليه السلام والثاني يمثل غطرسة فرعون وضلاله. وكل منهما يعرض أمامك بضاعته ويسوقها لك. فكن أنت ذاتك، وأعمل عقلك؛ فأغرق فرعون في نِيل قلبك، وأحيِ موسى حتى تصبح إنساناً، وتتربع على عرشِ السلطنة. فهذا هو الحكم والملك والسلطنة الحقيقية. إذ إن سلاطين الدنيا وملوكها يقدمون لك التاج، إلا أنهم لا يعطونك الرأس؛ يعطونك الحزام، ولا يعطونك الخصر".

يقول النبي ﷺ مشيراً إلى مكانة وأهمية القلب في جسد الإنسان: "ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب".

إنَّ كلمة العقل في اللغة العربية مشتقة من مصدر عَقَلَ، وهو يعني أمسك، قيد، ضم، ربط. وتطلق على عملية ربط المعلومات التي نحصل عليها بواسطة حواسنا، وتحليلها، ومزجها، واستخلاص النتائج منها فهذا ما تسمية التعقل، أو استعمال العقل. والعقل ليس عضواً يملأ مكاناً ماديًّا في الدماغ، وإنما يُعرف العقل على أنه وظيفة لعضلات القوة والتحكم، كما ويُعرف أنه إحدى وظائف الدماغ. وكذلك لم يرد لفظ العقل في القرآن الكريم لأنه ليس بكائن مادي، ولكن ترد له اشتقاقات كثيرة كيَعْقِل.

إن أهم آلةٍ إدراك ووعي لدى الإنسان فيما عدا الحواس الخمسة هي المخ الذهني (القلب العاقل). فهذه الآلية لا تتخذ قراراتها من خلال المنطق فحسب، وإنما تأخذ بعين الاعتبار في اتخاذ القرارات الجوانب والأبعاد الاجتماعية والعاطفية. وإن إيمان الذهن

(القلب العاقل) بالمقدس وتمسكه بالقيم المعنوية يضمن له التوازن في التفكير، ويحقق له إحساس الثقة بالذات. وهو عند المواقف والمواضع التي يقف العقل فيها عاجزاً يأخذ هذه القيم بعين الاعتبار ويوجه صاحبه نحو الطريق الصحيح.

دائماً ما يجري الحديث عن نظام المخلوقات الذي هو بمنتهى التكامل، والدقة، وعن التشابه في التكوين والتنظيم السائد في الكون، وذلك ابتداء من الأرض والنبات، وانتهاء بالحيوانات والإنسان. وعند التأمل والنظر في هذا التدرج التصاعدي يتبادر إلى الذهن حتماً سؤال مهمٌّ وهو إلى أين يجب أن يتجه الإنسان؟ وعندها يتبين لنا حتماً وجوب سيرنا على الخط أو الطريق الذي تنتهجه الملائكة والأنبياء. فهذه هي الوجهة التي يختارها لنا العقل والوحي. وإن السير بعكس هذا الاتجاه هو تحول من الصعود إلى الهبوط، تحول من الارتقاء إلى النزول، بل هو تحول الإنسان من الحياة الإنسانية إلى الحياة الحيوانية.

إن مصطلح أولي الألباب يأتي بمعنى:

"أهل الفراسة والبصيرة، أي الذين يستعملون عقولهم في تقدمهم وتحركهم".

ويشير مولانا إلى هؤلاء بقولهم: "أما الحساد وأهل الطمع فيتصرفون على ضوء ما يرونه أمامهم؛ وأما العقلاء فيرون النتائج والنهايات ويتصرفون على ضوئها. كما أن شهوة الطيور بالحبوب توقعها في الفخ وتجعلها في الشباك، كذلك فإن ضعف الإنسان وشهواته وأهوائه تقوده إلى نار جهنم".

إن الأمر اعقلْ – أي قيد أو اربط – الوارد في الحديث النبوي: اعقلها وتوكل لا يعني ربط أو مزج المعلومات التي نحصل عليها من خلال حواسنا واستخلاص النتيجة منها فحسب، وإنما يعني في الوقت نفسه غربلتها، وتصحيحها، واختيار الصواب منها، وإبعاد الخاطئ منها والحيلولة دون مروره.

أنعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بنعمة العقل وميّزه به دوناً عن الكائنات والمخلوقات الحيّة الأخرى، والقلب المصدر المسؤول عن الأحاسيس والمشاعر، الذي نُحسّ ونشعر من خلاله بإنسانيتنا، ويُقال سميّ بالقلب لحالة التقلب وعدم البقاء على وضع ثابت ومُعيّن فقد كان دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام "اللهم يا مُقلبّ القلوب ثبّت قلبي على دينك" وذلك لتقلبه ولا يبقى على حال، وسنقدم في هذا المقال أهم المعلومات التي تبين العلاقة بين العقل والقلب بالتفصيل.

إن القلب ذو خاصية مزدوجة، فهو مدرِكٌ، ومُدرَكٌ في الوقت ذاته. والقلب بمقام عينٍ للروح. فالبصيرة حسب عالمها نظرها؛ والعقل روحها؛ والإرادة حركتها ونشاطها. وإننا عادة عندما نقول: القلب فإننا نقصد هذا القلب. فالقلب هنا عضو بغاية الجمال والروعة، إذ إنه يمتلك كفاءةً وقدرةً تمكنه من جهةٍ تلقي الإشارات من آفاقٍ عليا وسامية، ومن جهة أخرى تمكنه من توجيه الإشارات إلى العقل وإحداث تأثير عليه. فهو ينقل هذه الإشارات بشكل متوافق مع إرادة الذي يتغلب في الصراع الداخلي إلى العقل، والعقل يقوم بتوجيه الأمر إلى الجسد، ويحول الأفكار والنوايا إلى سلوك وفعل. إذاً، إن قدرة العقل وملكة تقييده، وربطه بين الدوافع والنتائج، وغربلة الأفكار المتزاحمة ينبغي أن تتدخل هنا، وتجري انتقاء الإشارات الواردة إليها من القلب، فتنفذ الصحيح

منها، وتمنع الخاطئ منها. وأما الإرادة فهي محصلة رغبات العقل والنفس.

إن القلب يدل على معنيين رئيسين. فأما الأول فهو يدل على العضو المخروطي الواقع في الجهة اليسرى من الصدر تحت الثدي الأيسر، ويتمتع بأهمية مصيرية وحياتية بالنسبة للإنسان للامتيازات التي يمتلكها. فهو مركز المشاعر والأحاسيس والعواطف، وصلة الوصل الرئيسية بين كافة أعضاء الجسم وشرايينه، وأعصابه، وهو محركه الوحيد.

وأما الثاني؛ فهو البعد الملائكي، وهو أيضاً لطيفة روحانية تُعد مركز العاطفة، وقوة الإدراك، والإحساس، والعقل، والإرادة. وعن طريق هذا البعد يُطلق على الإنسان ألقاب مثل: عالم، عارف، مدرك. والروح أساس هذه اللطيفة وباطنها، وأما الروح البيولوجية فهو مركبها. وهذه اللطيفة هي المخاطبة من الله تعالى، وهي المكلفة بالتكاليف، والمعرضة للعقاب، والمتلقية للثواب، وهي التي تحلق وترتقي بالهداية، وتهوي إلى أسفل سافلين بالضلال، وهي التي تتلقى التكريم، وتتعرض للذل، وهي المرآة المجلاة للمعرفة الإلهية.

إن ارتباط القلب العاقل بالقلب الجسماني يشبه ارتباط وعلاقة الألوان بالأجسام، والصفات بالموصوف. يشبه الآلة مع مستخدمها، أو علاقة الجالس بالمكان الذي يجلس فيه. وأما الفؤاد فيستعمل للدلالة على عالم الإنسان الداخلي المتكون من الرغبات والأمنيات التي اتفق بشأنها العقل والنفس. وينظر القدماء إلى القلب العاقل على أنه عضو أبعد من القلب المادي، فهو عضو عاقل ومختلف، إذ أنه حساس، وقادر على الإدراك والوعي، ويضيء روح الإنسان. وقد أثبتت الأحداث والاكتشافات أن المصريين القدماء كانوا عند تحنيط المومياء ينزعون أحشاء الميت وكافة أعضائه إلا القلب، حيث كانوا يبقونه مكانه. إذ أنهم كانوا يعتبرون القلب مركز إدارة كل من الروح، والعقل، والعاطفة معاً.

إقرأ

الإيمان يتأتّى بالتصديق باليقين القلبي بوجود الله وتوحيده وما أوحى به من الحق ، وكذلك بالإقرار اللساني بكل ذلك ، فالإيمان ليس إدراكًا عقليًا ، بل هو قبولٌ قلبي بالدرجة الأولى .

والعلامة الفارقة للمؤمن هي تصديقه بالقلب دون شك أو ريب ، وبالتسليم المطلق للحقائق الغيبية التي لا تدركها الأبصارُ ، وتقصر عنها العقول .

والعقل هو الشرط الأول من شروط التكليف الديني . وقد أمر الله تعالى عباده باستخدام عقولهم في آيات كثيرة من كتابه الكريم . ومن هذا المنطلق ، فإنّ العقل هو نعمة وإحسان إلهي قيّم للغاية . لكن العقل أيضاً ككثير من النعم هو سلاحٌ ذو حدّين ، يمكن استخدامه في الخير وكذلك في الشر .

هذا وقد عصا إبليس أمر ربه بتحكيم عقله وفقًا لهواه ، وحلّت عليه اللعنة الأبدية . ولهذا فإنّ تربية عقل الإنسان بالوحي شرطٌ لتأدية العقل وظيفة المرشد الذي يأخذ صاحبه نحو الحق وصوب الخير .

فالعقل لا يملك قدرة مطلقة في بلوغ الحقيقة . فكما للعين حدود في إبصارها ، وللأذن حدود في سمعها ، فكذلك العقل له حدود . وإمكانية إدراك المحدود لما لا حدود له بالكلية هو أمر مستحيل . فمن المستحيل أن تسع كأس صغيرة ماء المحيط الهائل .

ما هو التوكل

من دروس
الشيخ
موسى طوبّاش

يقول جنيد البغدادي قدس سره:

ليس التوكل الكسب ولا ترك الكسب، إنما التوكل هو سكون القلب إلى ما وعد الله تعالى. وروي عن ابن عباس ﷺ أنَّه قال:

كان أهل اليمن أو أناس من أهل اليمن يحجون ولا يتزودون لخروجهم، ويقولون: "نحن المتوكلون" فأنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٧)

وكان النبي ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جَلَد وقوة وقد بكّر يسعى في عمله، فقالوا:

ويح هذا! لو كان شبابه وجلده في سبيل الله!

فقال رسول الله ﷺ:

"لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله وإن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان" (إحياء علوم الدين، ٢، ١٦٣)

إذاً؛ إن كل خطوة يخطوها الإنسان الذي يؤدي صلاته وينفذ أوامر ربه سبحانه وتعالى من أجل تحصيل رزقه تُعد عبادة. ولا شك أن هذا الأمر متعلق بنيَّة الإنسان كما ورد في الحديث النبوي المتقدم ذكره.

ومن أجمل الأمثلة حول كسب الإنسان رزقه بعمله وجهد يده هو سيدنا داوود عليه السلام الذي كان في الوقت نفسه رسولاً إلى قومه، لكنَّ منصبه الرفيع ومقامه المنيف لم يُثنه عن العمل والكسب.

فالمسلم لا يحتاج للتقدم والارتقاء من الناحية المعنوية إلى نفض يده من الدنيا. فهو إلى جانب قيامه بوظيفة العبودية تجاه ربه سبحانه وتعالى، يستطيع أن يحول الأعمال والشؤون الدنيوية إلى أجر وثواب يدوِّنها في سجل أعماله.

روي أن رجلاً، من أصحاب رسول الله ﷺ مرّ بشعب فيه عيينة ماء عذب، فأعجبه طيبه، فقال: لو أقمت في هذا الشعب فاعتزلت الناس، ولا أفعل حتى أستأمر رسول الله ﷺ. فذكر ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام، فقال:

"لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاة (نافلة) ستين عاماً خالياً".

(أحمد، مسند، ١٦، ٤٥٨/ ١٠٧٨٦)

إن التخلي عن العمل والسعي، والاعتزال يضع مكانة الإنسان بسبب الحاجة إلى الآخرين. والإسلام لا يرضى ولا يسمح بمثل هذه الحالة التي تدنس عزة المسلم وكرامته، فهو لا يرضى أن يسأل الإنسانُ المسلم الناس شيئاً، ويتذلل لهم ولو كان فقيراً. ولا ريب أن ديننا الذي من شأنه أن يُكسب المسلم شخصية متميزة لا يدع مجالاً لحدوث مثل هذا الأمر.

حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

"لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خير له من أن يسأل أحداً، فيعطيه أو يمنعه" (البخاري، ٢٠٧٤)

وإذا نظرنا إلى عصر الصحابة فإننا نجد أمثلة ونماذج بغاية الروعة والجمال في هذا الشأن. فقد آخى النبي عليه الصلاة والسلام بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف ﷺ. فقال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف:

"إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسمُ لك نصفَ مالي".

سُرَّ عبد الرحمن بن عوف كثيراً لموقف أخيه سعد، وقال له:

"بارك الله لك في أهلك ومالك، دلُّوني على السوق!".

فلم يستغل عبد الرحمن بن عوف الفرصة التي أتيحت ليقاسم أخاه نصف ماله، وإنما دعا له بالبركة والزيادة. وفضل بمقتضى الأخلاق الإسلامية الذهاب إلى السوق والعمل بالتجارة، وكسب قوته بسعيه وجهده.

***

إن التوكل هو إيمان وثقة تامة بالله تعالى في كل أمر. ومحله القلب. أي أن التوكل عملٌ قلبي. فاتخاذ التدابير والاحتياطات في الظاهر لا يشكل عائقاً أو مانعاً من توكل القلب. والتقدير من الله تعالى في كل الأحوال، فبتقديره يتحقق الأمر، وبتقديره لا يتحقق. والذي يتوجب على كل العباد هو الاعتراف بالله تعالى معبوداً وحيداً لهم، والتوكل والاعتماد والإيمان التام به دون سواه. فالتوكل والاعتماد على المال، والمنصب، والعقل والذكاء، والأولاد والعُصبة لا يأتي بنتيجة إيجابية في كل الأوقات. لأن هؤلاء بدورهم محتاجون إلى من خلقهم وتكفل برزقهم.

النفس المطمئنَّة

{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} (الفجر، ٢٧)

النفس المطمئنة هي نفس أهل التقوى واليقين، وهي مرتبة أهل الله العارفين، الذين انشغلت بذكر الله قلوبُهم، واطلعت على بواطن أحكام الشرع عقولهم.

يقول الإمام الرباني:

«إن العبودية والعبادات هي محض تقليد، لكن حين يصل المرء إلى مرتبة النفس المطمئنة يغدو التقليد تحقيقًا».

ويقول شيخنا سامي أفندي:

«إن دخول الإسلام بالمعنى الحقيقي منوطٌ بالتخلص من النفس الأمَّارة، واتباع أوامر الله تعالى، وبناءً على ذلك، تُطلق كلمة (الإسلام المجازي) على الإسلام الذي يُصدِّقه القلب فقط قبل الوصول إلى النفس المطمئنة، وتُطلق كلمة (الإيمان الحقيقي) على الإيمان بعد أن تصل النفس إلى مقام النفس المطمئنة».

أما الترقي في العبودية إلى مستوى التحقق، فهو الوصول إلى «مرتبة الحقيقة» الموجودة في تسلسل الشريعة، والطريقة، والحقيقة، والمعرفة.

الرفق والتحمل

من دروس
الشيخ محمود سامي
رمضان أوغلو

إن الإسلام يأمر المؤمنين بالرفق والتحمل، والابتعاد عن التعصب والإفراط في سائر شؤون الدين والدنيا. ويحث على الرفق في التعامل مع الناس جميعاً مسلمين كانوا أو غير مسلمين بشرط أن لا يكونوا خائنين، أو محاربين.

لقد دعا نبيننا ﷺ قومه إلى الدين مدة ثلاثة وعشرين عاماً. وكان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة ومثالاً يُحتذى به في دعوة الناس إلى الإسلام، فكان يدعوهم بمنتهى الحكمة والبلاغة، والاعتدال في النقاش والجدال. وكان بمنتهى الرأفة والرحمة.

وإن ما يذكره القرآن الكريم حول شدة تحمل رسول الله ﷺ وصبره على مختلف أشكال الأذى، ورفقه بالناس، وبيانه الأوامر الإلهية ومناقشتها باللين وبالتي هي أحسن، وما ترويه كتب السير من معلومات تصب في هذا الاتجاه فكلٌّ ذلك يثبت بما لا يدع مجالاً للشك والاعتراض أنه كان أبعد ما يكون عن الاستبداد بالرأي والتعصب وما إلى ذلك.

ونذكر الآن بعض الآيات التي تدور حول هذا الأمر:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢١- ٢٢)

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥)

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦)

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥)

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى: ٤٨)

لا شك أن البر والإحسان والرفق في المعاملة من أعظم القوى والطاقات التي تبعد الاعوجاج والمشاعر الشريرة، وتطرد الأفكار السلبية السيئة.

ومن أراد الدليل فيمكن تذكيره بتلك المحبة والسلام، والوئام، والمودة التي كانت مهيمنة وسائدة بين المسلمين خلال العصور التي ارتقوا وصعدوا فيها بالآداب الإسلامية إلى أعلى مراتب الإنسانية، وأسمى درجات الكمال المادي والمعنوي.

فأينما ذهب المسلمون وحلوا اصطحبوا معهم هذه المودة، والوئام والسلام، وقدموا للسكان المحليين نماذج فريدة لا مثيل لها من المحبة، والعون.

ولم يحدث أن دخل قوم تحت مظلة الإسلام ولم يستفيدوا من جملة المزايا القانونية والحقوقية!.

إدخال السرور في قلب اليتيم

جعل الإسلام مسئولية كفالة اليتيم فرض كفاية على الأمة يقوم به البعض وإلا أثم الجميع،قال تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٠)

يقول السري السقطي:

«رأيت معروفًا الكرخي في أحد أيام العيد يجمع نوى التمر في الطريق، فسألته عن سبب جمعه إياها، فقال:

(رأيت طفلاً صغيرًا يبكي، فسألته عن حاله، فأخبرني أنه يتيم يبكي لافتقاره إلى ثياب ودمى يتنعم بها كغيره من الأطفال، ثم بكى مرة أخرى، فأشفقت عليه؛ لذا أجمع نوى التمر كي أبيعها، وأشتري له بها ثيابًا ودمى).

فأشفقت أنا أيضًا على الصغير واكتوى قلبي لأجله، فرجوت الشيخ قائلاً:

(ائذن لي أن أهتم بهذا الطفل، ولا تشغل فؤادك به)، ثم أخذت الطفل ولبَّيت احتياجاته».

ويوضِّح السري السقطي الحالة التي وصل إليها ببركة هذا العمل الصالح بقوله:

«لقد دخل النور إلى قلبي ببركة هذه الخدمة، فصرت في حالة مختلفة كليًّا، وتذوقت اللذات الروحانية الكثيرة».

العبرة من القصة: إن إدخال السرور إلى قلب اليتيم ورعايته من أفضل الأعمال الصالحة التي حثَّ الإسلام عليها كثيرًا ولها أجر عظيم جدًا، والوعد الذي أعطاه رسول الله ﷺ في الحديث الآتي يروق القلوب العاشقة:

«كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة»، وأشار راوي الحديث مالك بن أنس بالسبابة والوسطى. (مسلم، الزهد، ٤٢)

وعن مالك بن عمرو القشيري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«من ضم يتيمًا من بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة». (أحمد ، مسند،٤/ ٣٤٤/ ١٩٠٥٢)

وفي حديث آخر يقول ﷺ:

«مَنْ مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله، كان له بكل شعرة مرت عليها يدُه حسنات» (أحمد بن حنبل، مسند، جـ٥، ٢٥٠)

ويُقصد بالمسح في هذا الحديث الاهتمام بمسائل اليتيم كلها المادية والمعنوية.

الأستاذ: عثمان توري طوبّاش

عثمان نوري طوباش

مِن حِكَم أولياء الله

أبو يزيد البسطامي رحمه الله -١-

يقول أبو يزيد البسطامي رحمه الله:

"طوبى لمن كان همه واحداً، ولم يُشغل قلبه بما رأت عيناه وسمعت أذناه. فمن عرف الله فإنه يزهد في كل شيءٍ شغله عنه". (السهلجي، النور، ص، ١٧٠؛ العباس، أبو يزيد، ص، ٧٣)

جاء في القرآن الكريم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (المؤمنون: ٣)

وورد في الحديث النبوي الشريف:

"من حُسْنِ إسلامِ المَرْءِ تركُه ما لا يَعنيه" (الترمذي، الزهد، ١١؛ ابن ماجه، الفتن، ١٢)

إن علامة أو شعار المؤمنين العارفين هو حفظ القلب وإبعاده عن كل ما سوى الله؛ أي تطهيره من كل شيء وتوجيهه إلى الله ﷻ وحده دون غيره. وإن سبب قدومنا إلى هذه الدنيا ووجودنا فيها هو العبودية للحق ﷻ، ومعرفته؛ أي معرفة الله ﷻ بالقلب. وإن قلب المؤمن الذي يُوفق إلى هذا الأمر يكون بحالة دائمة من الذكر، والفكر، والشكر وهو يتأمل بعظمة الله تعالى وقدرته، ونعمه التي لا تعد ولا تحصى.

ومن أهم غايات وأهداف التربية المعنوية تحصيل المبدأ أو الدستور القائل: "اليد عند العمل، والقلب عند الحبيب". وهذا الدستور لا يقتصر سريانه على العبادات فقط، وإنما يشمل سائر الشؤون الدنيوية، فهو يقتضي توجيه القلب إلى الله تعالى، وعدم الغفلة عنه في كافة مناحي الحياة وحتى أثناء الانشغال بالأمور الدنيوية. وبذلك فإنه يعني بلوغ حالة من الذكر الدائم.

تُعد هذه الحالة وسيلة لبلوغ نور البصيرة والفراسة واليقظة المعنوية الذي من شأنه توجيه القلب نحو الرضا الإلهي، وحفظه من الأهواء والانحراف نحو الذنوب والمعاصي. إذ جاء في القرآن الكريم:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٩)

فالذنوب تُقترف عندما يغفل القلب عن الله تعالى. إذ لا يمكن لقلبٍ ذاكرٍ أن يعرقل منافع أخيه ويبيِّت له الشر. ومن قلبه حيٍ بذكر الله لا يكسر

القلوب، ولا ينتهك حقوق العباد عمداً، ولا يقترف المحرمات.

واعتبر أبو يزيد البسطامي هذه الحالة من الاستقامة أعظم وأفضل من الكثير من الكرامات. فقد قيل له ذات يوم:

أنت تمشي على الماء!. فقال:

عود من الحطب يمشي على الماء.

فقيل له:

وتطير في الهواء!. فقال:

الطير أيضاً يطير في الهواء. قيل:

وتصل إلى الكعبة في ليلة. قال:

ساحر يأتي من الهند إلى دماوند –وهو جبل قرب همذان– في ليلة. قيل:

فما شغل الرجال؟ قال:

ألا يتعلق قلب الرجل بغير الله تعالى. (العطار، تذكرة الأولياء، ص، ٢٠١؛ السراج، ص، ٣١٦؛ العباس، أبو يزيد، ص، ٩٨)

ويقول أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى:

"كثرة الذكر ليست بالعدد بل بالحضور دون الغفلة". (العطار، التذكرة، ص، ١٩٨)

فلا تتحقق الفائدة المرجوة من فيض وروحانية الذكر إلّا إذا اشترك فيه اللسان والقلب معاً. إذ من الضروري القيام بالذكر بانسجام قلبي وبدني معاً شأنه كشأن الصلاة. أي ينبغي عند الذكر باللسان تأمل وتعمق العقل والذهن في معانيه.

فينبغي علينا أن نتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى ونحن على يقين وإدراك تام أننا نقف بين يديه، وأنه يرانا حيثما تحركنا، وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد. فبمثل هذا التوجه تتحقق حالة "الحضور" في القلب. والذي يقصده العارفون بعبارة الحضور هو حالة "الذكر الدائم" التي تحصل عن طريق الشعور بالمعية مع الله تعالى في القلب، وليس الراحة على الصعيد البدني.

ينبغي علينا أن نتوجه إلى الحق ﷻ ونحن على يقين وإدراك تام أننا نقف بين يديه، وأنه يرانا حيثما تحركنا، وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد. فبمثل هذا التوجه تتحقق حالة "الحضور" في القلب. والذي يقصده العارفون بعبارة الحضور هو حالة "الذكر الدائم" التي تحصل عن طريق الشعور بالمعية مع الله تعالى في القلب، وليس الراحة على الصعيد البدني.

إن الانتعاش أو الحيوية المعنوية التي يضفيها على القلب إدراك وإحساس المرء بوقوفه الدائم في الحضرة الإلهية تصعد بالذكر إلى أعلى وأسمى مقاماته ومراتبه. ويتحدث الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عن أهل الذكر الحقيقيين الذين بلغوا كمال الذكر، فيقول:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢)

إذاً؛ فالمراد من الذكر ليس ترديد الأوراد باللسان فحسب، وإنما المراد خشوع القلب واختلاجه نتيجة التفكر بمعاني الأسماء والصفات التي يرددها اللسان، واشتراكه في الذكر مع اللسان.

قال مولانا جلال الدين منادياً الذين يتعبدون بصورة شكلية وهم محرومين من فيوض القلب:

"أيها الغافل! ليتك عندما تسجد تتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى بصدق وإخلاص، وتدرك معنى قولك: (سبحان ربي الأعلى) بما يليق به. أي ليت

سجودك لم يكن شكلياً، وإنما كانت سجدة قلبية (بحيث تصعد بك إلى المعراج)".

إن العبادات التي تؤدى بغفلة وهي خالية من الخصال والأحوال القلبية مثل الإخلاص، والتقوى، والخشوع تكون مليئة بالشركاء الفانيين، والأدران والأوساخ المعنوية. لذا من الضروري للغاية أداء العبادات بإخلاص. فقد ورد في الحديث النبوي:

"أخلص دينك يكفك العمل القليل"(الحاكم، المستدرك، ٤، ٣٤١)

أي أن الأعمال التي تؤدى بقلب صادق مخلص، وهي صافية من كل نية مشوبة بما سوى الله ﷻ لها قيمة عظيمة عند الله تعالى وإن كانت قليلة. وبالمقابل فإن الأعمال التي تؤدى بقلب غافل بعيد عن الخشوع والطمأنينة والإخلاص ليس لها أدنى قيمة مهما كانت كثيرة. قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾ (الملك: ٢)

إذا ما تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أن الله ﷻ يقول "أحسن عملاً"، وليس "أكثر عملاً". أي إن الله تعالى يولي الأهمية للعمل الحسن وليس للعمل الكثير.

وتُعد الرواية الآتية خير مثال في هذا الشأن:

روي أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال لجماعة من أصحابه التابعين:

"أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا أفضل منكم.

قيل له: بأي شيء؟ قال:

إنهم كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة منكم". (الحاكم، المستدرك، ٤/ ١٣٥)

إذاً؛ إن قيمة العمل مرتبطة بحالة قلب صاحبه.

والحاصل؛ إن نور الذكر متوقف على حال الذاكر، فكلما حسنت حاله كلما زاد نور الذكر. وإن مرتبة الإنسان المعنوية في التربية الصوفية مرتبطة بصفاء حاله، وليس بازدياد أوراده وأذكاره. أي إنها مرتبطة بأداء العبادات بتناغم وانسجام بين البدن والقلب، وبتكامل الأخلاق وخاصة الرحمة والشفقة، وبالحرص على مراعاة آداب المعاشرة في العلاقات والمعاملات الإنسانية.

فالذكر المقبول عند الحق سبحانه وتعالى هو الذكر الفعلي لا القولي. أي الذكر الذي ينتقل من القال إلى العمل والإخلاص. الذكر الذي تظهر آثاره على شخصية صاحبه، وتؤيده الأعمال الصالحة.

فإذا لم يحمل الذكر صاحبه على التعمّق في التفكير، ولم يُبلغه الطمأنينة والسكينة، ولم يساعد على تكامل أخلاقه، ولم يضف الرقة واللطافة والتهذيب على سلوكه وتصرفاته، ولم يكسبه حس التقوى ولم يرغبه في الأعمال الصالحة فإنه يدل على عدم مراعاته آداب الذكر.

قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى:

"ما وصل من وصل إلا بالحرمة، وما سقط من سقط إلا بترك الحرمة".

ورد في الحديث النبوي:
"أخلص دينك يكفك العمل القليل".
أي أن الأعمال التي تؤدى بقلب صادق مخلص، وهي صافية من كل نية مشوبة بما سوى الله عز وجل لها قيمة عظيمة عند الله تعالى وإن كانت قليلة. وبالمقابل فإن الأعمال التي تؤدى بقلب غافل بعيد عن الخشوع والطمأنينة والإخلاص ليس لها أدنى قيمة مهما كانت كثيرة. قال الله ﷻ:
﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾

وتُعد مراعاة الآداب في طريق التربية المعنوية الشرط الأول لبلوغ المقصود. فالوصول إلى رضا الحق سبحانه وتعالى ومحبته مرتبط بتعظيم واحترام أوامره، بقدر ارتباطه بتنفيذ هذه الأوامر.

إنَّ أداء العبادات والقيام بالخدمات لوجه الله تعالى بعشق إيماني، ومحبة، ووجد وشوق هي آداب مهمّةٌ من آداب العبودية. لأن الله ﷻ ليس بحاجة لعباداتنا وخدماتنا وأعمالنا.

وقد نُقل أنه جاء إلى أبي يزيد رجلٌ فقال:

علمني شيئاً يكون سبباً لنجاتي. فقال:

احفظ حرفين من العلم، واعلم أنك لا تحتاج بعدهما إلى شيءٍ:

١) اعلم أن الله مطلع عليك ويراك (أقرب إليك من حبل الوريد).

٢) واعلم أن الله تعالى لا يحتاج إلى عملك. (العطار، التذكرة- ص، ١٩١)

ولا ريب أن المهم عند الحق سبحانه وتعالى هو حال القلب لدى أداء العبد واجب العبودية، وأهمية هذه الحال لا تقل عن القيام بواجب العبودية ذاتها. وأعني بحال القلب مستوى الإخلاص، والمجاهدة، والتشوق، والأدب، والاحترام والتعظيم.

فقد قيل: "الأدب في العمل علامة على قبوله".

وقيل أيضاً:

"العبادة تأخذ الإنسان إلى الجنة، وأما الأدب والتعظيم في العبادة فإنه يأخذ العبد إلى الله ويقربه منه".

ومن مظاهر هذه الحساسية فقد كان الشيخ سامي أفندي، وموسى أفندي بمقتضى تعظيمهما للصلاة يحرصان حتى على تسوية سجادة الصلاة وترتيبها.

ويقول أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى:

إنّ مفتاح الجنّة كلمة التّوحيد، وله أسنان أربع لا ينفتح الباب إلاّ بها:

١) السّن الأوّل: تطهير القلب من الشك والشرك والخيانة.

٢) السّن الثاني: تطهير اللسان من الكذب والغيبة والنميمة.

٣) السنّ الثالث: تطهير البطن من الحرام والشبهة.

٤) السّن الرّابع: تطهير العمل من العجب والرّياء والبدعة. (هانئ، الحدائق، ص، ٣٢٠)

ويقول رسول الله ﷺ:

"من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" (أبو داوود، الجنائز، ١٥-١٦/٣١١٦؛ أحمد، ٥، ٢٤٧)

ولكن إن كنا نريد أن يكون آخر كلامنا كلمة التوحيد فلا بد أن نبذل قصارى جهدنا ليشمل مضمون هذه الكلمة كافة نواحي حياتنا.

وكما قيل في الخبر:

"كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون" (المناوي، فيض القدير، ٥، ٦٦٣)

فإذا أردنا أن نعيش حياتنا كما تبينها لنا كلمة التوحيد فينبغي أن ننظم ونبرمج عقولنا، وقلوبنا، وألسنتنا، ومعدتنا، وسائر أعضائنا، والأفعال والتصرفات التي تصدر عنَّا وفق ما تقتضيه عقيدة التوحيد، أي نغربلها بغربال التوحيد.

ويجب أن ننظم حياتنا في ميادين الحلال والحرام، والحق والباطل، والخير والشر، والصح والخطأ، والحسنة والسيئة تحت مظلة التوحيد وإرشاده.

ولا ننسى أبداً أن عقيدة التوحيد لا تقبل الإشراك بشكل من الأشكال. فكما أن المسلم صاحب عقيدة التوحيد لا يقبل بالآلهة الباطلة المنتشرة في العالم الخارجي، فإن عليه إن كان يؤمن بالحق سبحانه وتعالى رباً واحداً أن يزيل كافة الأحوال والخواطر الداخلية التي من شأنها مناقضة معنى التوحيد وروحه. ينبغي تطهير القلب الذي هو مقر الإيمان من الأصنام والأوثان النفسانية مثل الغرور، والعجب، والكبر، والرياء، والأهواء والشهوات كما طهر إبراهيم عليه السلام المعبد من الأصنام وكسرها. إذ جاء في القرآن الكريم:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ؟﴾ (الفرقان: ٤٣)

وورد في الحديث النبوي:

"ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع"

(الهيثمي، ١، ١٨)

فإذا أراد الإنسان أن يتعمق ويغوص في حقيقة كلمة التوحيد، ويصبح من أهل التوحيد بحق فلا بد له أن ينقي قلبه من كافة الأهواء والرغبات والشهوات التي توقعه في حالة الغفلة عن ربه سبحانه وتعالى بقول "لا إله"؛ ثم يغرس في أرضية هذا القلب الصافية والنقية حقيقة "إلا الله"، ويخصص عرش قلبه لله تعالى وحده دون غيره.

لقد أزال إبراهيم عليه السلام كافة أشكال المحبة الفانية من قلبه حتى صار قلبه مظهراً لتجليات جمال الحق سبحانه وتعالى. وبذلك فإنه وصل إلى حالة أصبح فيها خليل الله تعالى.

ولهذا فإن الخطوة الأولى على سلم التكامل المعنوي في التصوف هي "التخلي"، أي تخلية العالم الباطني من كل ما يبعد العبد عن الله تعالى بالتوبة الصادقة، والاستغفار، ودموع الندم.

وأما الخطوة الثانية فهي "التحلي"، أي تحلي العالم الباطني للعبد بكافة الأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة والحسنة التي تجلب رضا الحق سبحانه وتعالى ومحبته.

وأما الخطوة الثالثة فهي "التجلي"، أي أخذ نصيب من تجليات معرفة الله ومحبة الله تعالى...

يقول أبو يزيد البسطامي رحمه الله في إحدى مناجاته للحق سبحانه وتعالى:

"ليس العجب من حبي لك وأنا عبد فقير، إنما العجب من حبك لي وأنت ملك قدير" .(أبو نعيم، الحلية، ١٠، ٣٤)

إن محبة العبد لله تعالى، وطاعته وعبادته له، وتضرعه إليه، والتضحيات التي يقدمها في سبيله لا تُكسب الحق ﷻ شيئاً. لأنه هو الصمد، حيث إن الكل محتاج إليه، وهو منزه ومستغنٍ عن كل حاجة. لذا فإن شتى أصناف عبادتنا للحق سبحانه وتعالى وطاعاتنا له ليس تكريماً له، وإنما تكريم منه لنا. وكما قال الشيخ سعدي رحمه الله: اشكرِ الله لتوفيقه إياك إلى عمل الخير. إذ إن الحق سبحانه لم يتركك سدى بلطف وإحسان منه.

فالذي يخدم السلطان لا يستطيع أن يمننه. وإنما هو الذي يمتن للسلطان لاستخدامه إياه".

لذا فإن شكر الحق سبحانه وتعالى والعبودية له من أعظم النعم بالنسبة للمؤمن وأسمى درجات العزة والشرف والسعادة.

وبالمقابل فإن نقص مشاعر العشق والتشوق في العبودية دليل على ضعف الإيمان، ونكران النعم المادية والمعنوية، وهو علامة من علامات النفاق. حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في شأن المنافقين والغافلين:

﴿...وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ١٤٢)

وبناء على ذلك إذا أراد المؤمن أن ينال محبة الله ورضاه فعليه أن يقوم بكافة عباداته، وصدقاته، وخدماته، وتضحياته دون أدنى شعور بالضيق أو التأفف، بل يجب أن يقبل إليها بشوق وحماس، ومحبة، وبشعور بالامتنان لله ﷻ.

فإذا جاءنا أحد بهدية لها قيمة كبيرة، ولكنه قدمها لنا بوجه عابس متجهم، وبدون رغبة وتودد فإننا لا نتلقاها بقبول حسن. إلا أنه إذا ما قدمها بأدب وبوجه بشوش يدل على محبته وصدق رغبته فإننا نتلقاها بقبول حسن ونشعر بالمحبة تجاهه حتى وإن كانت الهدية شيئاً قليلاً.

وهذا الأمر ينطبق على دعاء العبد لربه، وأدائه عباداته، وعبوديته. فكلما كانت الأعمال التي نقوم بها لوجه الله تعالى بعشق وحماس ورغبة كلما ارتفعت قيمتها عند ربنا سبحانه وتعالى.

ومن جهة أخرى يجب على المؤمن أن يشعر تجاه ربه الذي أوجده من العدم بحالة من التقصير، والفناء، والفقر، والعجز، والتواضع. فلا يغترن بعمله أبداً؛ وعليه أن يلجأ دائماً إلى مولاه ﷻ رجاء رحمته ومغفرته.

فقد طلب خالد البغدادي رحمه الله تعالى الذي كان شمس الشموس في العلم والعرفان، طلب في أحد مكتوباته إلى أحد تلامذته الدعاء لنفسه بحسن الخاتمة. وعبر في أحد مكتوباته إلى أخيه عن منتهى شعوره بالتواضع والفناء، حيث قال:

"والله ما أعتقد أني عملت خيراً منذ أن ولدتني أمي... وأقصى درجات الجهالة أن لا ترى نفسك مفلساً في كل أعمال الخير. وإياك أن تقطع رجاءك من رحمة الله وأنت ترى نفسك مفلساً! ففضل الله تعالى وإحسانه خير للعبد من أعمال الإنس والجن جميعاً...".

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾ (الفرقان: ٦٣)

أي أن المؤمن الكامل يعيش الحياة ويسير في دروب الدنيا وهو مدرك تمام الإدراك عجزه، وضعفه، وتقصيره أمام عظمة الخالق وقدرته التي لا حدود لها. لأنه من الاستحالة أداء دين الشكر على نعم الله تعالى بحقه.

فالله ﷻ خلقنا من العدم، وجعلنا من الإنس الذي يُعد أشرف المخلوقات من بين كل الكائنات، وجعلنا من أهل الإيمان من بين البشر جميعاً، وأكرمنا بالانتماء إلى أمة أحب رسله إليه، وشرفنا بخطاب القرآن الكريم. ولو بقينا ساجدين مدى العمر دون أن نرفع رؤوسنا لحظة واحدة فإننا لن نوفي حق شكر هذه المكرمات الجليلة.

وهذا الموقف من مواقف أبي يزيد البسطامي يرسم لنا أجمل وأروع مثال على الأفق القلبي لدى أولياء الله في هذا المجال: فقد روي أن أبا يزيد كان يمشي مع جماعة من المريدين في طريق ضيق، فاستقبله كلب ولا بد إما من رجوع الشيخ أو الكلب. فرجع الشيخ، وترك الطريق للكلب. فدار

طلب خالد البغدادي الذي كان شمس الشموس في العلم والعرفان، طلب في أحد مكتوباته إلى أحد تلامذته الدعاء لنفسه بحسن الخاتمة. وعبر في أحد مكتوباته إلى أخيه عن منتهى شعوره بالتواضع والفناء، حيث قال: "والله ما أعتقد أني عملت خيراً منذ أن ولدتني أمي... وأقصى درجات الجهالة أن لا ترى نفسك مفلساً في كل أعمال الخير. وإياك أن تقطع رجاءك من رحمة الله وأنت ترى نفسك مفلساً! ففضل الله تعالى وإحسانه خير للعبد من أعمال الإنس والجن جميعاً..."

في قلب بعض المريدين شبهة إنكار في ذلك، وقال في نفسه:

ما معنى ذلك؟ مِثل الشيخ وجماعة من المسلمين يرجعون لأجل كلب!، وقد قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾ (الإسراء: ٧٠)

فاطلع الشيخ على الأمر وقال:

لما استقبلت الكلب، واستقبلني، قال الكلب:

يا شيخ وأي شيء سبق لي في الأزل حتى أُلبس جلد الكلب، وأنت صرت مشهوراً في الدنيا وسلطان العارفين؟. فرجعت لذلك. (العطار، التذكرة، ص، ١٧٩)

إذاً؛ ينبغي عندما نشاهد أو نصادف أي مخلوق من مخلوقات الله تعالى في طريقنا أن نتوقف ونقول في أنفسنا:

كان من الممكن أن يكون هذا مخلوقاً مكاني، وأكون أنا مكانه"، ومن ثم نزيد من شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة، وهذا الإحسان والتكريم الفريد. ومن جانب آخر:

علينا أن نستغرق بالتفكير في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨)

ونزيد من الحمد والتسبيح والشكر لله تعالى على كافة نعمه – التي نعرفها والتي لا نعرفها –. ونحن عاجزون عن الإيفاء بالشكر لله بصورة تليق به فلذلك ينبغي أن نداوم على الاستغفار وطلب العفو.

لما نزلت هذه الآية الكريمة قام رجل محتاج لا يملك من أموال الدنيا شيئاً فقال: يا رسول الله هل علي من النعمة شيء؟

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"نعم الظل والنعلان والماء البارد" (السيوطي، الدر المنثور، ٨، ٦١٩)

فالنبي ﷺ يشير بذلك إلى أنَّ الإنسان الذي يعتقد أنه لا يمتلك شيئاً لكنه في الحقيقة إنما يتقلب في كثير من النعم التي سوف يُحاسب عليها يوم القيامة.

والحاصل؛ يجب على المؤمن أن يعلم جيداً أن محبته للحق سبحانه وتعالى وخضوعه له بالعبودية من أعظم النعم التي يعجز عن أداء حق شكرها. إذ إن الله ﷻ إنما يهب محبته للعبد الذي أحبه. وانطلاقاً من ذلك يجب أن نكون ممتنين للعبادات، والخدمات، والتضحيات التي نوفق إليها والتي من شأنها جلب رضا الله تعالى ومحبته.

قال النبي عليه الصلاة والسلام:
"كان من دعاء داوود:
اللهم إني أسألك حبك،
وحب من يحبك،
والعمل الذي يبلغني
حبك".
(الترمذي، الدعوات، ٧٢)

فكما ورد في الحديث النبوي الشريف أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

"كان من دعاء داوود:

اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك" (الترمذي، الدعوات، ٧٢)

إذاً؛ يجب علينا البحث عن الوسائل التي تقربنا إلى حب الله تعالى والتمسك بها. ولا شك أن أكبر وأعظم هذه الوسائل هو تطبيق سنة الرسول الكريم ﷺ أحب خلق الله إليه. لأن أقواله، وأفعاله، وأحواله إنما هي تفسير حي للقرآن الكريم الذي يعبر عن الإرشادات الإلهية.

وبناء على ذلك فإن اتخاذنا لحبيب الله تعالى قدوة ومثلاً أعلى لنا في كل شؤوننا وبقدر طاقتنا أعظم وسيلة لمحبة الحق سبحانه وتعالى...

نسأل المولى ﷻ أن يوفقنا جميعاً إلى الأحوال والأعمال التي تبلغنا رضاه ومحبته.

آمين!..

محبة الرسول ﷺ

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران، ٣١)

تبدأ المشاعر الأولى في محبة النبي ﷺ بخشية الله تعالى، والتأدب في حضرته، والاستشعار الدائم لمعيته سبحانه، ثم تخليص النفس من شهواتها وآفاتها رغبة فيما عند الله تعالى، وحرصاً على نيل محبة نبي الله، إذ هو الطاقة الكبرى الدافعة في الاقتداء والتأسي بشخصيته العظيمة ﷺ.

وفي هذه الأمة المحمدية هناك أناس من «أهل القلوب»، وهؤلاء هم الذين حققوا في مشاعرهم معاني محبته والتأسي به ﷺ، حتى بلغت محبتُهم مرحلة الفناء فيه ﷺ، وهم يقدمون لنا نماذج حية وواقعية من هذه المحبة.

لقد استطاع هؤلاء أن يصلوا إلى نبع المحبة، فقد أحبوا الله تعالى حق المحبة، وأحبوا رسول الله ﷺ حق المحبة، فصاروا هم أيضًا أهلاً لمحبة الخلق إلى قيام الساعة، وحبنا لهم حبًا عمليًا يكون في تذكرهم والترضي عليهم، والدعاء لهم والاقتداء بهم.

فإذا ما تساءلنا عن كيفية وصولهم إلى هذه المنزلة والمحبة، نورد لكم نموذج من حياة هؤلاء الأفذاذ.

أرسل رسول الله ﷺ إلى القبائل المحيطة به معلِّمين كي ينشروا الدين المبين ويعلموه، لكن بعضًا من هؤلاء المعلمين تعرضوا للغدر من بعض هذه القبائل، وهذا ما تحقق في وقعة الرجيع. فقد أرادت كلٌ من قبيلتي «عضل» و«قارة» من رسول الله ﷺ معلمين كي يعلِّموهم الإسلام، فأرسل الرسول ﷺ وفدًا من عشرة رجال، وحين وصلت هذه القافلة إلى موقع الرجيع، وقعت في المكيدة، فاستُشهد منهم ثمانية، بينما سُلِّم اثنان منهم إلى مشركي مكة.

وكان الأسيران الصحابيَّين زيدًا بن الدثنة وخبيبًا بن عدي ﷺ، واستُشهدا على يد كفار مكة، وكانوا قد سألوا زيدًا قبل أن يصلبوه: «أيَسرُّكَ أن محمدًا في أيدينا مكانك وأنت في بيتك؟» فأجاب زيد ﷺ: «والله ما يسرني أن محمدًا أُشيكَ بشوكة وأني في بيتي!». فما كان لأبي سفيان بعدما رأى من هذه المحبة إلا أن يقول:«ما رأينا أصحاب رجل قط أشدَّ حبًا من أصحاب محمد لمحمد».ثم ذهبوا إلى خبيب ﷺ، وقالوا له: «ارجع عن الإسلام، نُخلِ سبيلك!». فقال: «لا والله ما أحب أني رجعت عن الإسلام وأن لي ما في الأرض جميعًا!». وسألوه ما سألوا زيدًا ﷺ فكان جواب خبيب مثل جواب زيد. وقبل استشهاد خبيب كان له طلب واحد فقط وهو: «السلام على سيدنا محمد ﷺ!..»

لكن لم يكن عنده منْ يرسل سلامه هذا للنبي، فرفع عينيه بحزن إلى السماء ودعا قائلاً:«اللّهم إني لا أرى إلا وجه عدو، اللهم إنه ليس ها هنا أحدٌ يبلغ رسولك السلام عني، فبلِّغه أنت عني السلام!». وفي ذلك الحين كان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه، فأخذه كما كان يأخذه إذا أنزل عليه الوحي. ثم قال: «وعليه السلام ورحمة الله»، ثم قال: «هذا جبريل يُقرئني من خبيب السلام».

وكانت النهاية أن استشهد الصحابيَّان قتلا بعد التعذيب

الأستاذ: عثمان توري طوبّاش

جعفر دورموش

امتحان الإنسان

يقول الله ﷻ: {...لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا...} [المائدة: ٤٨]

عندما نتحدث عن العلاقة بيننا وبين العلم فإننا نجنح نحو المبالغة أحياناً، فيعظم العلم في عيوننا.

فلنعد إلى عالمنا ونقدم بعض الاعترافات.

إن تاريخ الإنسانية أمامنا!

فإذا ما عدنا بالتاريخ إلى الوراء فإننا نصادف تراكماً ثقافياً يمتد لثمانية آلاف عام. ويعتبر العلماء أن بداية التاريخ تعود إلى عصر اكتشاف الكتابة على يد السومريين، ومن هناك يمتد إلى يومنا هذا. حسناً؛ فمنذ كم عام بدأت الحياة على الأرض؟ لقد بدأت منذ مئات آلاف الأعوام.

أليس هناك حضارات منسية قد نشأت وتطورت ثم انهارت واختفت؟

لا ريب أننا نشاهد اليوم أشياء كثيرة مجهولة. وعندما نتناول الأمور المعلومة فإننا نقف وجهاً لوجه مع ثلاث حقائق مهمة: الوجود، والعلم، والأخلاق. فهكذا ترتب الحقيقة الثلاثية. وهذه هي المواضيع الأساسية التي تنشغل بها الإنسانية جمعاء في العالم. فقيمة العلوم القديمة والتوق للعوالم الجديدة والحياة التي سيتم نسجها من جديد على ضوء هذه المفاهيم سوف تسير بهذا المجرى.

فما الموقف الذي اتخذه العالم الإسلامي تجاه الحقائق الثلاثة؟

إذا نظرنا إلى ما كتب حول هذا الموضوع فإننا نجد في كتاب "تجديد الفكر الديني في الإسلام" للمفكر محمد إقبال.

يجب أن يحتل موضوع الوجود مكانة مركزية في حياتنا. ويجب أن نعزز هذه الفكرة. فعالمنا الباطني لا يولي أهمية واعتباراً لما يقوله العالم الحديث عن ظاهرة الوجود. فما الذي نقوله نحن كحاملين للقيم القديمة عن الكينونة؟

ما الذي يقوله لنا اليوم مفهوم الوجود لدى عزيز محمود هدائي؟ إنَّه يقول:

أنت الآخذ، وأنت المعطي، وأنت المقيم؛ ما أعطيتنا فهو ما لنا، وليس لنا غيره"؟

ينبغي أن نبني وجودنا على القيم الذاتية. حسناً فأين سوف نصب الزّبَد الذي نُخرجه من وجودنا؟

لقد أصبحت مقولة "أنا أفكر، إذاً فانا موجود" أرضية أو أساس الوجود في العصور الحديثة. وإذا كنا نريد أن نحقق انطلاقة حضارية جديدة فلا بد لنا من أن نأتي بالمقولات التي ستجعل للوجود معنى يوصلنا إلى عتبة الحقيقة. علينا أن نتأمَّل ملياً في حقيقة وجودنا، وأن نزيل صدأ عالم الوجود بالعبادة. علينا أن ننشر حولنا بشارات ذاك الشخص الذي عرَّف الحق في الوجود عن حقيقة العالم الذي وجد معناه ومغزاه مع الحق سبحانه وتعالى وآمن به.

ويفتح سميح سَرغَن Semih Sergen نافذة مختلفة نحو الوجود، وذلك بقوله:

"نحن عباد العشق، فسمُّ العشق يبدو لنا لقمان الحكيم

وقطرة لعين الروح تبدو كسبعة بحار

نحن وجدنا سرور القلب في الاحتراق

وحب الإله يبدو قراراً، والعقل يبدو دواء".

لا بد لنا أن نحمل موضوع العلم إلى ميدان بعيد عن ضوضاء وضجيج التربية- التعليم. فالعلم الذي حُوِّل إلى حِمل ثقيل على كاهل الإنسان والذي أصبح مجرد أفكار لا تمت إلى الحياة الأخلاقية بصلة فهذا لن يفيدنا في التقدم نحو الأمام قيد أنملة. فيجب أن يتخلى الجميع عن تعلم كل شيء، وأن يُسند العلم لأهله.

إن الأخلاق هي شريان الحياة تنبض بها قلوبنا فلتكن هدفنا وغايتنا.

ومفهوم الأخلاق الأساسي هو ثابت لا يتغير أينما كنا في العالم. فهي احترام الروح، والمال، والعرض، والعقل، والدين.

ورد عن النبيّ ﷺ أنه قال:

"إنَّ أحَبَّكم إليَّ وأقرَبَكم منِّي في الآخرةِ أحاسِنُكم أخلاقًا وإنَّ أبغَضَكم إليَّ وأبعَدَكم منِّي في الآخرةِ أسوَؤُكم أخلاقًا المُتشدِّقونَ المُتفيهقونَ الثَّرثارونَ"

[رواه الترمذي]

هي إمكانية فتح نافذة بين الضمائر وبين معرفة الله تعالى.

ولا شكّ بأنّ الأخلاق هي سمة المُجتمعات الرّاقية المُتحضّرة، فأينما وُجِدَت الأخلاق فثمّة الحضارة والرّقي والتّقدم، ولما أرسل الله تعالى نبيّه محمّد ﷺ جعل من مَهمّات دعوته وصميم رسالته أن يُتمّ الأخلاق ويُكمّلها، فالأخلاق موجودة راسخةٌ برسوخ الأمم ونشوئها قبل النبوّة والبعثة، غير أنّها كانت ناقصةً مسلوبة الروح والمضمون، فجاءت الشّريعة الإسلاميّة لتُكمّلها وتُلبسها لباساً يُجمّلها ويَجعلها في أحسن صورة، والأخلاق الحسنة هي حالة إنسانيّة سلوكيّة يسعى كثيرٌ من النّاس الباحثين عن الكمال للوصول إليها وإدراكها، والأخلاق ترفع درجة الإنسان في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، فالنّاس يُحبّون صاحب الأخلاق الحسنة الحميدة ويتقرّبون إليه ويتمنّون صحبته وصداقته، وهي كذلك ترفع درجة المُؤمن عند ربّه جلّ وعلا، بل وتجعله من أقرب النّاس مَجلساً إلى رسول الله يوم القيامة.

لا شك أن الذي يخضع للامتحان في هذه المسائل المهمة هو الإنسان. فلنرى من سيخرج من هذا الامتحان بنجاح والوجه ضاحكٍ مسفرٍ؟

الأستاذ: عبد الله سَرْت/ حديث عن جانب من حياة الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو

روح تلك المؤلفات

لقد خلَّف الشيخ سامي أفندي أثرَين عظيمَين؛ أولهما: كتبه التي تُرجِمت إلى لغات مختلفة، والتي سوف تكون بإذن الله تعالى علماً نافعاً مستمراً إلى يوم القيامة، ومنارة إرشاد للأجيال القادمة، وإحياءً لدين الله. والآخر: الجماعة النقية التي أنشأها وربَّاها.

في الواقع لقد عاش أستاذنا الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو في هذه الدنيا بصورة حسنة وجميلة، وجميع المؤمنين يحسنون الظن به، وقد خلف وراءه أشياءً رائعة. وأنا العبد الفقير واحد من إخوانكم الذين تعاملوا بشكل مباشر مع كتابات أستاذنا الجليل الرائعة. وإن لساني ليلهج بالشكر على أن كنتُ ممن تفضل الله عليهم بنعمة القيام بعمل خير- لربما يشكل أعظم وسيلة شكر في حياتي- ألا وهو تحويل كتابات واحد من أهل الله إلى الأحرف اللاتينية لا سيما تلك المخطوطة بالأحرف الإسلامية، ثم نقلها إلى العالم بالإمكانات التي أتيحت لنا... فالحمد لله تعالى.

إلا أني أريد أن أعرض لكم كيفية كتابة هذه الكتب، والخط الذي سارت عليه حتى وصلت إلى هذه الحالة. لم يسعَ أستاذنا الشيخ سامي أفندي رحمه الله للكتابة من أجل تأليف كتابٍ ما بعينه، إذ إنه قام في البدء بتدوين مقتطفات من آيات القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وحياة الصحابة الكرام، ومشاهد من حياة أهل الله الذين انحدروا من ذاك النهج دون أن ينحرفوا عنه قيد أنملة والتي ستكون نماذج تطبيقية وعملية لنا، ودوَّن كل ذلك على شكل ملاحظات من أجل نقلها للناس الذين أخذوا بيده في ذلك الوقت. ثم إن تلك الملاحظات التي كتبت على شكل صفحات منفردة تراكمت فيما بعد لتتحول إلى دفاتر، ثم نُقلت هذه إلى الأحرف اللاتينية ونُسِّقَت وطُبِعَت على شكل الكتب التي تقرؤونها اليوم، وتأسس دار الأرقم برغبته، ثم وضعنا نصب أعيننا إمكانية إيصال كتبنا وأعمالنا إلى

بلدان أخرى مثل دمشق، وحلب، وجنوب أفريقيا، فظهرت دار النشر. وما يشكل العمود الفقري لهذه الدار إنما هو هذه الدفاتر التي كتبها الشيخ سامي أفندي بالأحرف الإسلامية في أوقات الأسحار وهو على وضوء.

لقد كتبت مختلف الكتب التي نشرناها اليوم والتي يبلغ عددها ثمانية عشر كتاباً كلها بمثل هذا الإخلاص، والعزم، والجدية. وفي هذا المقام يحضرنا على الفور الحديث النبوي الشريف الذي قاله رسول الله ﷺ:

"إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". [رواه البخاري ومسلم]

لقد وهب الله ﷻ الأستاذ سامي أفندي هذه المكرمات الثلاثة كلها. والحق أن الأستاذ سامي أفندي لم يأخذ شيئاً من الميراث التي تركته أسرته لأنه قرر كسب قوته بعمل يده، والتزم بذلك حيث كسب قوته بعمل يده، ولم يجمع ثروة دنيوية قط. فكيف لإنسان مثل هذا أن يخلف وارءه صدقة جارية؟ إذا نظرنا اليوم فإننا نجد بأن هناك أوقافاً باسمه منتشرة في الأناضول "أوقاف محمود سامي أفندي"، وكذلك هناك مساجد منتشرة باسم محمود سامي. أي إن هناك اليوم بئر ماء لسامي أفندي تسقي في أفريقيا، حيث أبناء أفريقيا الذين يعانون العطش اليوم يشربون من خير ما فعله ذاك الإنسان الذي يُعد من أهل الله. إذاً؛ أكرمه الله تعالى بالصدقة الجارية، وبإذن الله تعالى فإن هذه الآثار سوف تبقى قائمة للأجيال القادمة.

والأهم من ذلك الجماعة الفريدة التي خلَّفها وراءه. لقد ربى سامي أفندي أناساً سوف يحملون الأمانة المعنوية والروحية المتوارثة من النبي ﷺ ويسيرون بها على نهجه. وأحد هؤلاء موسى أفندي، فقد تصدى لحمل هذه الأمانة على أحسن وجه. إذ قام موسى أفندي بدور عظيم الأهمية في مسألة نشر كتب السيد سامي أفندي. حتى إنه عند تأسيس دار النشر أرسل في طلبي ذات يوم وقال: "يا سيد عبد الله، سوف أجعل لكم كل سنة مبلغاً خاصاً بشأن هذه الكتب. وإن شاء الله سوف تقوم مقابل هذا المبلغ المخصص بإيصال الكتاب إلى المدارس، والمعاهد، والمنازل، وإلى أولاد أمة محمد ﷺ جميعاً".

> لقد كان شيخنا المرحوم عمر كيراز أوغلو ينقل إلينا بين الحين والآخر ملاحظاته ومشاهداته المتعلقة بهذا الأمر، فكان يقول: "أنظر أحياناً فإذا بأستاذنا محمود سامي أفندي يقوم بإجراء التحضيرات لنهاره في ساعات الليل، وأوقات السحر. وأحياناً نرى عند غلبة النعاس عليه، وكأن قلمه يخط من تلقاء ذاته".

روح تلك المؤلفات

على ماذا كانت تحتوي تلك المؤلفات؟ في الواقع، إن كل مؤلَّف يتطلب عرضاً وتقديماً خاصاً به. فمثلاً يمكن إجراء جلسة خاصة بشأن كل من تناول حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويوسف عليه السلام. ولكن الأمر الذي سنتعرض له بشأن هذه المؤلفات هو: ينبغي أن نفهم جيداً الخط التصوفي الذي مثله سامي أفندي بأعماله ومؤلفاته. فماذا يوجد هنا؟ نقول توجد تربية معنوية وروحية مرتكزة بشكل تام على القرآن الكريم والرسول ﷺ. إذ عندما ننظر إلى كتاب (سيدنا يوسف عليه السلام)، نجد بأنه تفسير لسورة يوسف، فكأنه عبارة عن كتاب تفسير. ولكن في الحقيقة لو تعمقنا فيه نجد بأنه يحتوي على آلاف التفاصيل ودقائق الأمور. فهو ليس عبارة عن تفسير يهدف إلى بيان معاني القرآن الكريم، ويتبع الأسلوب التقليدي في تفسيره وشرحه، وإنما قد نقشت فيه أيضاً التربية التي يحتاجها الإنسان في وقتنا الحاضر. لقد كنت بين الحين والآخر أغرق في التفكير وأقول لنفسي: لماذا كتب سامي أفندي عن سيدنا يوسف عليه السلام؟ ولماذا كتب عن سيدنا إبراهيم عليه السلام؟ ولماذا كتب

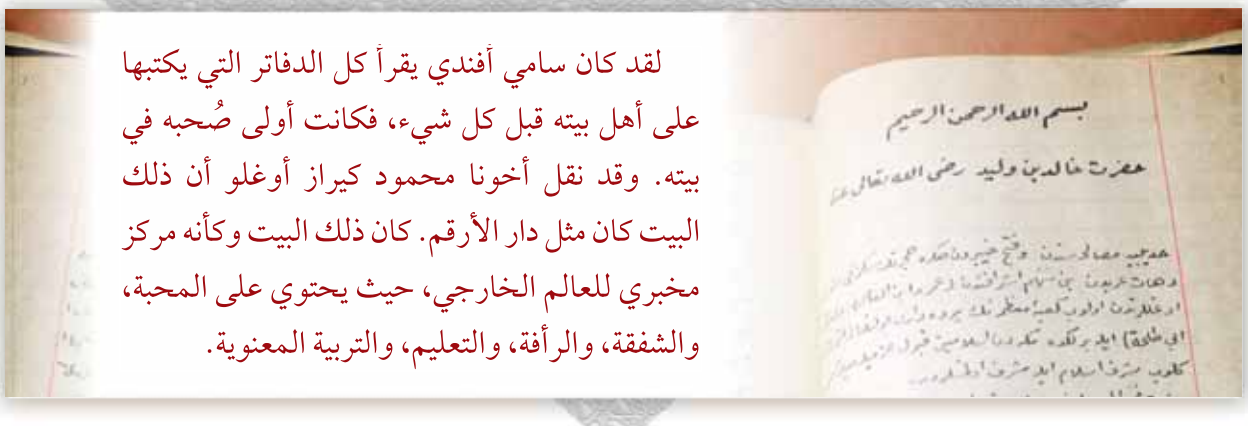

لقد كان سامي أفندي يقرأ كل الدفاتر التي يكتبها على أهل بيته قبل كل شيء، فكانت أولى صُحبه في بيته. وقد نقل أخونا محمود كيراز أوغلو أن ذلك البيت كان مثل دار الأرقم. كان ذلك البيت وكأنه مركز مخبري للعالم الخارجي، حيث يحتوي على المحبة، والشفقة، والرأفة، والتعليم، والتربية المعنوية.

عن مناقب الصحابة الكرام؟ لقد توصلت إلى الأمر الآتي: إن سامي أفندي ليس بالإنسان الذي يوجِّه نصائحه وتنبيهاته بطريقة مباشرة، بالقول لأحدهم مثلاً: هذا خطأ، وهذا صواب. وإنما كان واحداً من أهل الله يستخدم أسلوب الإشارة في النصح والتنبيه متبعاً مبدأ: (إن اللبيب بالإشارة يفهم). ولذلك أعتقد بأن هذا المجتمع بالنسبة إليه لا سيما في السنوات الثمانين الأخيرة التي نعيشها يحتاج إلى أمور أساسية:

الأمر الأول: عقيدة التوحيد. فعندما تعرضت عقيدة التوحيد للانتهاك والانحراف، اتجه سامي أفندي بصمت ودون مناقشة أحد، أو الدخول في مناظرات وجدالات إلى العمل على حماية عقيدة التوحيد تلك، والتعبير عن دقَّته في تلك المسألة بالكتابة عن سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأخذ يوضح كيفية العبودية الحقيقية، والماهية التي تكون عليها المشاعر التوحيدية، ولمن سيخضع الإنسان ويتعبده ويدين له بالطاعة. وكل ذلك من خلال تفسير القرآن الكريم.

الأمر الثاني: التعريف بالنبي ﷺ وأصحابه الكرام. وهذا الأمر يشكل حاجة دائمة للإنسان في جميع العصور. أي إن الإنسان الوحيد الذي ينبغي التعرف إليه من الجانب الشرعي والتصوفي والإحسان، والقدوة الوحيدة التي ستُتَّبع إنما هو رسول الله ﷺ والصحابة الذين وصفهم بقوله: "أصحابي كالنجوم".

ولذلك اتجه سامي أفندي إلى كتابة كتب عن عدة غزوات للنبي ﷺ وهي غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة تبوك، وبعد ذلك عمل على كتابة سلسلة الصحابة الكرام مبتدئاً بأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ثم سيرة خالد بن الوليد رضي الله عنه لاتصال نسبه به. ولا شك أننا عندما نُذكِّر أنفسنا بين الحين والآخر بغزوة أحد فإننا نشعر بالحزن والأسى، وعندما نذكُر غزوة بدر فإننا نشعر بجلال الصحابة الكرام وجلادتهم، فكيف بمن كان يحضر الصحبة؟ لا ريب بأن الحاضرين جميعاً كانوا يشعرون بكل ذلك بشكل أجلى وأدق. وأما الكتاب الذي يتحدث عن غزوة تبوك فذاك شأن آخر. إذ إنه كتاب مهم لأنه يحتوي على عبر ودروس مهمة للمسلمين. فغزوة تبوك كانت في الحقيقة غزوة امتحان وتمحيص للصحابة الكرام. ففي نهاية الغزوة، توجه الصحابة إلى المدينة في طريق سفر طويل وشاق، وما إن وصلوا إلى المدينة حتى جاء قول رسول الله ﷺ الذي يخبرهم بعدم انتهاء المهمة:

"رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر".

[رواه البيهقي]

أجل، لقد قطع الصحابة ما يزيد عن ألف كيلومتر في ظروف صعبة حتى وصلوا إلى تبوك، وقد أصاب بعض الصحابة ضعف شديد حتى لربما التصق جلده بعظمه، ثم بعد ذلك قفلوا عائدين. إلا أن الآية الكريمة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ [الشرح: ٧] كانت تقتضي أن

ينتقل النبي ﷺ من جهاد إلى جهاد آخر، ومن عمل إلى عمل آخر باستمرار.. إذاً فإن هذا الكتاب الذي يبحث عن مجريات هذه الغزوة وتفاصيلها وحكمها، يحمل أهمية كبيرة من حيث تذكير المسلمين اليوم بأمر مهم للغاية وهو الجهاد، ولا يُقصد بالجهاد فقط الجهاد المادي القتالي، وإنما أيضاً جهاد النفس الذي يحمل أهمية أكثر من الجهاد الأول، كما أفاد بذلك الحديث النبوي المذكور آنفاً والذي عبر عنه بالجهاد الأكبر.

أعيد القول هنا من جديد؛ إن سامي أفندي كتبَ أعماله والله أعلم على أساس تفكير جاد وذي غاية، أي بوصفها مشروعاً على حد تعبيرنا. إذ لماذا يكتب عن سيدنا يوسف عليه السلام وعن سيدنا إبراهيم عليه السلام؟ قال أحد كبرائنا:

"إن سامي أفندي لفت الانتباه كثيراً إلى ثلاث علاقات: الأولى: العلاقة بالمال، والثانية: العلاقة بالشهرة، والثالثة: العلاقة بالنساء".

وفي الحقيقة لو نظرنا إلى ما يُبَث في وسائل الإعلام اليوم لوجدنا مجموعة من سبل الفساد التي تستهدف نقاط الضعف لدى الإنسان، وهي عبارة عن الضعف تجاه المال، أو الشهرة، أو الجنس الآخر. إلا أن سامي أفندي قد أقام في الحقيقة سدوداً دفاعية منيعة جداً من أجل كل هذه الانحرافات. فقد أقام هذه السدود الدفاعية من جهة في نفسه، وفي حياته الخاصة، ومن جهة أخرى لدى الناس الذين انشغل بتربيتهم من خلال أعماله وكتاباته، حيث ظل باستمرار يحذرهم وينبههم إلى هذه النقاط الخطيرة.

كان لنا أخ يُدعى حسين السامسوني، وسمعت منه قوله: جاءنا سامي أفندي إلى سامسون ونحن ثلاثة أشخاص. كنا وقتها في ريعان الشباب. وكانت زوجتي مثل ابنة سامي أفندي، فقلت له: يا سيدي! لو أنك تأذن لزوجتي فتأتي لتلقي عليك السلام وتقبل يدك... فاحتد فجأة وقال:

"نحن نعيش من أجل الشريعة، وموجودون من أجل الشريعة، ولا نسمح لمثل هذه الأمور أن تحدث. وإذا كان لديهن اهتمام فليروننا من بعيد عندما نخرج للوضوء".

فهذا الإنسان الذي يمتلك مثل هذه الدقة في مراعاة الشريعة، يقول أيضاً عندما يكتب عن يوسف عليه السلام: أعتقد أن من واجبنا اليوم رجالاً ونساءً إعادة قراءة قصة يوسف عليه السلام والتأمل فيها من جديد.

ينبغي أن نعيد قراءتها إذ تحتوي على الدلالات والإشارات المعنوية والروحية من جهة، ومن جهة أخرى على الدقائق الشرعية.

فكما أشرت قبل قليل إن هذه الأعمال تشكل مشروعاً في ذهن سامي أفندي، حيث إنه بالفعل أورد الأسس الرئيسة للتربية التصوفية في كل هذه الآثار والأعمال التي كتبها. ومثال ذلك كتاب (المصاحبة ١) والذي يشد انتباهي كثيراً... ففيه يشير إلى الأمور التي تشكل الخطوط العريضة والرئيسة لمجتمع اليوم أيضاً، فيقول:

- أولاً: يجب تصحيح العقائد على ضوء الكتاب والسنة. إذ قام علماء أهل الحق بفهم تلك العقائد من الكتاب والسنة واستنباطها؛ أي إن علماء أهل الحق فهموا وتعلموا هذه العقائد من الكتاب والسنة ونقلوها كما فهموها.
- ثانياً: يجب العلم بالأحكام الشرعية بشأن الحلال والحرام، والفرض والواجب.
- ثالثاً: يجب العمل وفق مقتضيات هذا العلم.
- رابعاً: يجب القيام بتزكية النفس، وتطهير القلب.

الدنيا كاذبة و خداعة

الأستاذ: علي رضا تَمَل

إذا أراد المرء النظر إلى هيمنة الكذبة المحكوم لها بالموت والفناء على الحقيقة المحكوم لها بالخلود والبقاء فعليه النظر إلى تزايد اهتمام الناس وانكبابهم وتعلقهم بالحياة الدنيا التي هي من حيث النتيجة ليست إلا عبارة عن لهو، ولعب، وخيال مقابل إهمالهم وغفلتهم عن الحياة الآخرة التي تُعد الحياة الحقيقية والأبدية. فالحياة الدنيا وخاصة مع الانتشار العجيب للوسائل والأدوات التكنولوجية التي غطت كافة الميادين اليوم أخذت تخدع أغلب الناس مثل ساحر محترف، وتشكل حاجزاً حديدياً صلباً بينهم وبين الحياة الآخرة. وقد سُحر الناس أمام هذه الحياة التي أصبحت افتراضية بكل ما للكلمة من معنى من خلال سيطرة الأوهام، والأفكار السريالية، وانتشار الأفلام والبرامج الخيالية التي تبثها وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي في كافة مناحيها، حيث فقدوا توازنهم وعقولهم، وأصبحوا يسعون في سبيل الأهداف الخيالية المزيفة ويجرون خلف سراب النفس، ويضرب بعضهم رقاب بعضٍ.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠)

وما أجمل كلام جلال الدين الرومي حيث يقول:

"لقد بدا العدم وجوداً شديد الاحترام، وبدا الوجود (الآخرة) على شكل العدم. لقد اختفى البحر وجعل لك الزبد ظاهراً، واختفت الريح وبدا لك الغبار، بدا كمئذنة من التراب الملتف المتصاعد، فكيف يصعد التراب من تلقاء نفسه؟ لكنك ترى التراب متصاعداً أيها العليل، ولا ترى الريح إلا بتعريف الدليل. فهذا العالم كالغبار الذي يخفي الريح".

ويلعب الأطفال لعبة البائع والمشتري، إلا أنهم لا يحصلون في النهاية على شيء سوى تمضية

الوقت. فيمر الوقت ويحل المساء، ويعود الطفل إلى بيته جائعاً. وينصرف الأطفال الآخرون فيمسي كل واحد منهم وحيداً. واعلم أن هذا العالم مكان اللهو واللعب، والموت هو الليل الذي تأوي إليه. حيث تصول وتجول وأنت متعب منهك إلا أن الصندوق فارغ. وهذه النفس السافلة لا تفتأ تريد منك الكسب الفاني، ولكن إلى متى ستبقى تكسب هذه الأشياء الفانية؟".

"إنَّ النائم يرى الشيطانَ في الحلم كحورية، فيفرغ ماء اليأس على الشيطان بشهوة. وما إن يفرغ من زرع بذاره على الأرض الجدباء حتَّى يصحو، ويستعيد وعيه، ويهرب منه الخيال. ولا يحصل من ذلك الحلم سوى على صداع الرأس، والذهول، ووساخة البدن. فآهٍ من ذاك الخيال الذي لا أصل له".

"ويُحلق الطائر في السماء، فيُرى ظلُّه على الأرض كطائر يطير. ويحاول المغفَّل اصطياد ذاك الظل، فيجري خلفه حتى لا تبقى فيه طاقة. وهو لا يدري أين أصل ذلك الظل، لأن الظل انعكاس الطائر الذي في السماء على الأرض. ويطلق سهمه نحو الظل، حتى تفرغ جعبته من السهام. وهذا حال الغافل في الدنيا إذ يُفرغ جعبة عمره في الأوهام، ويمضي العمر وينقضي الأجل وهو يسعى خلف اصطياد الظل".

إن المسألة بمجملها هي أن يميز الإنسان بين الخيال والحقيقة، وبين الفاني والباقي، وبين الأصل والصورة، ولا يضحي بالكنز الباقي في سبيل الكسب الزائل. والمولى سبحانه وتعالى ينبهنا إلى هذه المسألة، فيقول في كتابه العزيز:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا﴾ (الكهف: ٤٦)

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران: ١٤)

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤)

إنه لأمر عجيب، ومثير للدهشة والحيرة أن يتصارع الناس ويتكالبوا على الدنيا وتُرتكب أفظع الجرائم في سبيل الحصول على مكاسبها، وفناؤها ماثل أمام الأعين لا يخفى على أحد، وذهاب مكاسبها وأموالها يوماً ما معلومٌ للجميع لا يقدر على إنكاره أحد، حيث إن الراحلين عنها والقادمين إليها يضعون كل لحظة هذه الحقيقة جلية أمام الأعين. فسلوك الناس هذا يذكرنا بالعشاق الحمقى الذين يتعاركون للحصول على جميلة بغيٍّ لا الوفاء لها. حيث إن هذه المعشوقة التي يجري الصراع في سبيلها عبارة عن مصيدة مزينة. فهي لا تشعر بالألم والحزن على من يموتون في سبيلها، ولا تذرف عليهم دمعة. وكذلك أنت عندما يحين الأجل وتموت فلن تشعر بخبر موتك وجلي أمرك مزرعتك الجميلة، ولا قصرك الفاخر، ولا سيارتك الفارهة، ولا ثيابك ذات الماركات المشهورة، ولا أريكتك الناعمة التي تحملت في سبيل الحصول عليها مختلف المشقات وخضت شتى أشكال الصعاب. فلن تتأسف عليك ولن تقول: لقد تحمل هذا الرجل مشقات كثيرة في سبيلي. وكذلك أقرب الناس إليك سوف ينسونك بعد مرور مدة من الزمن، ويختفي ذكرك بينهم كشأن أشيائك. قال النبي ﷺ:

"يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله". (البخاري، الرقاق، ٤٢)

فلبنة طينية باقية خير وأكثر قيمة من ذهب مؤقت زائل. لقد كان البابليون يعبدون النجوم، والشمس والقمر. ولما رأى إبراهيم عليه السلام غروب هذه الكواكب وأفولها، قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعام: ٧٦)

وقال مولانا جلال الدين: "إني لا أجلس على عرش لم يكتب عليه "خالدين فيها". إنها مقولة رائعة. إذاً ليس من العقل بشيء الجلوس على عرش والتعلق به وهو ذات يوم سوف يُسحب من تحتنا شئنا أم أبينا. فحزنُ الفقد أثقل دائماً من فرحة الكسب.

لا شك أنه لا يمكن العيش في هذه الدنيا دون امتلاك شيء. كما يقول الشاعر عاكف:

"من لا يكسب ثمن رغيف في هذه الدنيا؛ يصبح أسود الوجه أمام الأصحاب، وسخرية أمام العدا".

فما نود قوله هو أن لا ننظر إلى الدنيا وما فيها من أمور دنيوية على أنها غاية بحد ذاتها، وإنما هي وسيلة أو وسائل للوصول إلى الغاية الأصلية. وفي الواقع فإن السبب الرئيسي لكافة المشاكل والمصائب التي تحدث بين الناس هو تحول الوسيلة إلى غاية. وهذا المفهوم هو ما حول الناس إلى حالة تشبه حالة الكلاب التي تتصارع على عظم. فليس من مصلحة أحد تحويل الدنيا إلى ساحةً صراع وحرب، أو قلب الحياة التي يمكن أن تكون كالجنة إلى جحيم بسبب الأنانية، والجشع والطمع والحسد، بينما هناك متسعٌ للكسب الحلال، وتقاسم اللقمة مع الآخرين، والعيش بأخوة وسلام. ولو ساد الكسب الحلال، وحدث تقسيم عادل للثروات فلن يبقى في الدنيا مكان للإرهاب، ولا للحرب. فالسبب الرئيسي لكل الصراعات، والجرائم والحروب هو الطمع والجشع وحب الدنيا المفرط.

يقول جلال الدين الرومي:
"يظن الأحمق أن مال الوديعة ملكه فيرتجف خوفاً من فقدانه وضياعه. ويرى الغافل في الأحلام أنه صاحب المال فيصدق أحلامه، ويخشى أن يسرق اللصوص أعداله. ولكن إن فركت أذنه يستيقظ من نومه هلعاً ثم يسخر من نفسه. لقد علقتك الدنيا بصنارتها، فأنت منذ ستين سنة تتقلب في محن وبلايا شباكها".

لقد أخبر النبي ﷺ أن أكثر أسباب الصراعات والحروب الغنى والمال الحرام وليس الفقر، وحذر أمته من فتنة الدنيا. لقد بعث الرسول ﷺ الصحابي أبا عبيدة رضي الله عنه إلى البحرين لجمع أموال الجزية. فذهب أبو عبيدة إلى البحرين وجمع أموال الجزية وجاء بها إلى المدينة. فجاء الذين سمعوا بمقدم أبي عبيدة إلى المسجد لأداء صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ. ولما أنهى النبي ﷺ الصلاة وانصرف، تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال:

"أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟

قالوا: أجل يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ:

فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم". (البخاري، الرقاق، ٧؛ مسلم، الزهد، ٦)

إن مال الدنيا ليس سيئاً بحد ذاته. إلا أنه يؤدي إلى الصراعات، والأخطاء والهلاك إذا ما أسيء استعماله، وأخرج عن السياق الذي بينه الله ﷻ. وإن النبي ﷺ لا يشجع ولا يحث الناس على الفقر، وإنما يلفت الأنظار إلى المهالك والمخاطر التي يمكن أن يقع الناس فيها بسبب الغنى الذي يتحقق بطرق غير مشروعة ويُساء استعماله وتوجيهه.

فالسبب الرئيس للصراعات وأشكال الظلم والعدوان التي تحدث اليوم في العالم سواء ضمن

البلدان الإسلامية أو في المجتمعات الأخرى إنما هو التنافس غير المشروع في السيطرة على الثروة، والجشع الذي لا حد له. إن الأرواح الجائعة المحرومة من الغذاء المعنوي لا يمكن أن تعرف الشبع بالماديات.

يروى أن عيسى عليه السلام قال:

"مثل الإنسان الجشع كمثل الإنسان الذي يشرب الماء المالح، فكلما أكثر الشرب كلما زاد عطشه، فلا يزال يشرب ويعطش ويشرب ويعطش حتى ينفجر".

والعالم الذي نعيشه عالم نجد فيه من ينفجرون من التخمة والنهم إلى جانب من لا يجدون ما يأكلونه. عالم يحاول فيه أكثر من مليار إنسان العيش بدخل أقل من دولار واحد في اليوم إلى جانب فئة قليلة صارت أسيرة مطامعها وجشعها وتحاول السيطرة على كلِّ شيءٍ وامتلاك كل شيء.

فالواجب على الإنسان توجيه وإدارة الأموال والثروات بطريقة يستفيد منها الجميع. لأن الأغنياء إنما يحصلون على ثرواتهم من خلال الآخرين.

إن من يصبح عبداً للمال والثروة بدلاً من أن يكون عبداً الله تعالى لا يكون حرًّا، وإنما يرزح تحت نير الرِّقِّ والعبودية. وقد رَثى النبي ﷺ لحالهم بقوله:

"تعس – شقي وهلك – عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض". (البخاري، الرقاق، ١٠، الجهاد، ٧٠)

إن الأمور الدنيوية ليست إلا وسائل ابتلاء وامتحان. فالإنسان يمتحن بالفقر كما يُمتحن بالغنى. والحياة الحقيقية هي الحياة الأبدية.

وقال رسول الله ﷺ:

"لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء". (الترمذي، الزهد، ١٣)

وكما قال الفيلسوف والشاعر أبو العلاء المعري:

"والبيب اللبيب من لم يغترَّ بكون مصيره للفساد".

وأريد أن أنهي مقالي بهذا التحذير الإلهي:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (فاطر: ٥)

أي المجتمعات أعظم حضارةً؟

إذا نظرنا في ماضينا الذي كانت تسود فيه الأخلاق الإسلامية، سنجد أن فقراء الناس وأغنياءهم كان يرأف بعضهم ببعض، فقد كان يعيش الغني والفقير في البلدة نفسها في طمأنينة وسكينة دون أي فروقات في التجمَّعات والأحياء السكنية، وكان كل حي مأوى للأرامل واليتامى والمساكين، فإن كان ثمة مريض في البيت، وُضِعَت ورود حمراء في شرفة المنزل، كي يمر الباعة من أمام البيت دون إزعاج، ويلعبَ الأطفال في مكان آخر. لقد كان ذلك السلوك نتاجَ تربية عظيمة، فأي مربٍّ اليوم أو أي عالم نفس أو عالم اجتماع يستطيع أن يضع أمامنا مثل هذه التربية؟

إننا نجد اليوم في حفلات الزفاف والأعياد مجموعةً من الناس إذا أرادوا أن يستمتعوا أطلقوا الألعاب النارية، غير آبهين بالمجتمع من حولهم، ولا مراعين لأحوال الرضَّع ولا الحوامل ولا المرضى ولا المكروبين. فهذا هو الفارق في الإنسانية والرقي في المجتمعَين... إنها نتيجة مؤسفة لسنين قضاها الناس في انحلال ثقافي وحضاري...

الأستاذ: أديب بكي

الدعاء
عبـــادة وفطـــرة

لقد خلق الله عز وجل الإنسان وأرسله إلى الدنيا للامتحان والابتلاء. فالحياة الدنيا ليست بالمكان الذي يسير فيه كل شيء على ما يرام دون منغصات ومعيقات. فهي لم تُخلق لهذا. إنها هي مليئة بمحطات الصعود والهبوط، والمشقة والتيسير، والغنى والفقر، ولها مراحل متعددة ومتفاوتة من طفولة، وشباب، وشيخوخة وما تحتويه هذه المراحل من خصائص ومزايا ومساوئ. وإضافة إلى ذلك فإن الإنسان ليس متروكاً لشأنه أو منسيًّا بعد مجيئه إلى هذه الدنيا. وإنما هو خاضع لامتحان واختبار بمنتهى الصعوبة. وتُعد الحياة الدنيا من أهم وأخطر محطات رحلة الوجود التي يخوض الإنسان غمارها.

لأنه تم تنظيم وتهيئة هذه المحطة كمكان للامتحان وبصورة تجعلها تحدد اتجاه المحطات اللاحقة لهذه الرحلة. وإن أهم مسألة أو قضية هنا تتلخص بتمكن الإنسان من تحصيل الإيمان الحقيقي أو عدمه. إلا أن المسألة لا تنتهي مع هذا الأمر. حيث إن الإنسان بعد الإيمان يتعرض في كل لحظة وفي كل حال من أحواله للامتحان والابتلاء، وذلك ببدنه، وماله، وأولاده، ونفسه. يُمتحن بالغنى والفقر، وبالصحة والمرض، وبالخير والشر. وبهذا الامتحان تُختبر في الوقت ذاته قوة

عقيدته، وصبره، وثباته أمام الأحداث التي يمر بها، وسلوكه وتصرفاته أمام أوامر الله تعالى ونواهيه.

إن الإنسان كائن محدود القدرات والإمكانات والطاقات. فهو كائن ضعيف، عاجز، عجول، محتاج. ورغم ذلك هو كائن واسع الأحلام وكثير الأمنيات والرغبات والطموحات، إلا أنه في الوقت ذاته محتاج للعون والمساعدة في كل موقف أو حالة يتعرض لها. إنه لا يستطيع القيام بشؤونه بنفسه. فهو لا يملك إمكانية اتخاذ قرار نافذ بحق بدنه. وكما أنه لا يملك شيئاً بشأن بدنه وهو عاجز عن التحكم به، فإنه كذلك عاجز عن التحكم بالأحداث التي تجري في محيطه. ولهذا فإنه بحاجة لمن يقدم له يد العون في كل حال من أحواله. ويطلق على استغاثته وندائه للمساعدة، وطلبه العون في الأحوال والمواقف التي نعجز عن التغلب عليها اسم "الدعاء".

الدعاء يأتي بمعنى التوسل، والتضرع، والنداء، والدعوة، وطلب العون، والحاجة. والله ﷻ يأخذ حالة الإنسان هذه بعين الاعتبار، ويوليه قيمة وأهمية بسببها، ويحث عباده على الدعاء، وإدراكهم عجزهم وطلبهم العون والمساعدة منه، حيث يخاطبهم قائلاً:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)

ولهذا فإنه يجعل الدعاء عبادة يتم أداؤها في كل وقت ولحظة، وتضرعاً وابتهالاً من شأنه أن يبقي الطريق الواصل بينه وبين الإنسان سالكاً ومفتوحاً على الدوام.

إن العبادات الأخرى تتميز بأن لها أوقاتٍ معينةً تؤدى فيها. مثل أداء الصلاة في أوقات محددة في اليوم، والصوم في شهر أو وقت معين من العام وهو شهر رمضان. إلا أنه لم يُخصص للدعاء وقت معين. فبإمكان الإنسان ودون التقيد بشروط شكلية التوجه بالدعاء في أي وقت من الأوقات، وعرض حاله وحاجته على ربه ﷻ الذي بيده كل شيء. وهذا شيء عجيب وباعث للسرور بالنسبة للعبد. إذا ما عرفنا أن من أصعب المواقف أو التصرفات التي تزعج الإنسان وتعكر صفوه هو اللامبالاة به، وعدم الإصغاء إليه، وعدم قدرته على التعبير عن نفسه، فإذا عرفنا ذلك فإننا ندرك حينها بوضوح مدى أهمية الدعاء، وكيف أنه يُعد من أعظم وسائل التواصل بين الإنسان وربه التي تحقيق الطمأنينة والسكينة وراحة البال له. فالخالق ﷻ الغني عن العالمين المنزه عن الحاجة لأي شيء يخبر عباده الفقراء المحتاجين لكل شيء أنه ما عليهم سوى الدعاء، والتوجه إليه، وطلب أي شيء منه، ويحثهم ويدفعهم إلى ذلك. حيث يخاطبهم قائلاً:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)

ومن جانب آخر فإنه ورد أحاديث صحيحة عن بعض الأوقات التي يُقبل فيها الدعاء، وبعض الأصناف الذين يُقبل منهم الدعاء بهدف حمل الناس على التركيز على الدعاء والإكثار منه في أوقات معينة وإدامة هذه الرابطة العجيبة. فذكرت أن في يوم الجمعة ساعةً يُقبل فيها الدعاء حتماً. كما وتتحدث هذه المصادر أن من الأدعية المقبولة دعاء الوالدين للأبناء، ودعاء المريض، ودعاء الضيف. إن هذه الوصايا أو الإشارات النبوية التي تجلب معها تنظيماً اجتماعياً أيضاً تبين لنا مدى أهمية الدعاء وضرورة جعله حالة أو ظاهرة تغطي كل لحظات وميادين الحياة. وبناء على ذلك فإن الدعاء بالنسبة لنا نعمة عظيمة، وفرصة لا تفوت ولا تعوض بثمن. لأننا نعيش في حياة لا تسير فيها الأمور دائماً كما نريد، كما وتعج بمن يفقدون أحباءهم وأقرباءهم،

الدعاء يأتي بمعنى التوسل، والتضرع، والنداء، والدعوة، وطلب العون، والحاجة. والله سبحانه وتعالى يأخذ حالة الإنسان هذه بعين الاعتبار، ويوليه قيمة وأهمية بسببها، ويحث عباده على الدعاء، وإدراكهم عجزهم وطلبهم العون والمساعدة منه.

الدعاء بأنّه اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى في السراء والضرّاء والخضوع له، طلباً في تحقيق أمور دنيويّة وأخرويّة يتمنّى المرء حدوثها، ويعتبر الدعاء من العبادات المحبّبة إلى الله تعالى، وينال العبد على هذه العبادة الكثير من الأجر والثواب.

وبالمرضى، وبمن يؤسسون لأعمال جديدة، وبمن ينهون دراستهم ومن يذهبون حديثاً إلى المدارس، وبالمتزوجين والمطلقين، وبمن يرزقون بالأبناء والمحرومين منهم، وبمن يفترقون ومن يلتقون ببعضهم بعد غياب، وبالناجحين والفاشلين. وإننا نشاهد قسماً من هذه الأحداث والأصناف، ونعيش بعضها الآخر بالذات.

ولهذا فإننا نطور طريقة تعاملنا ومقاربتنا مع كل حالة نعيشها ونتعرض لها، وندعم هذه المقاربات بالأدعية. وإننا نفعل ذلك في الغالب بحسن نية. وكثيراً ما نعتقد أو نؤمن بأن الأدعية التي ندعو سوف تقبل بالشكل الذي دعونا به، فلذلك نستعجل القبول وننتظر أو نتوقع تحقق رغباتنا كما هي. وعندما لا تتحقق رغباتنا ومطالبنا فإننا نتوقف قليلاً، ثم نبدأ بالتساؤل والتحقيق في عدم تنفيذ وتحقق أدعيتنا. فنتساءل ألم يقل الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

فإذا اشتهر "الدعاء" بين الناس وكثر ترديده والتشجيع عليه ونشره وتعميمه بقدر كبير في سائر لحظات الحياة اليومية، وتمَّت مراعاة سائر شروط قبول الدعاء من خلال الحديث عن أوقات قبوله، والأشخاص الذين يُقبل دعاؤهم ثم نرى أن الإجابة قد تخلفت، فنقول: "لا تُقبل أدعيتنا"؛ "أو إن الله تعالى لا يقبل دعاءنا". فهذا يعني أننا نعاني هنا من مشكلة خطيرة، تكمن في قلوبنا أو أعمالنا أو أحوالنا.

إننا عندما ننظر إلى بعض العبارات والأقوال التي نسمعها بكثرة في الحياة الاجتماعية والتي تجري بها الألسنة وتقال بنية الدعاء يمكننا القول إن هناك مشكلة كبيرة ومهمة للغاية. أجل إننا نعاني من مشكلة هامة في هذا الموضوع. وهذه المشكلة هي مشكلة خارجة عن شكل وآداب الدعاء. إنها تحولت إلى لغة وتعبير وألفاظ للمجاملة، وأسلوبٌ للملاطفة. إننا لا نفهم ما نقوله، فنقول ونتكلم بأشياء غير مقصودة. فالمعاني التي في قلوبنا شيء، والكلمات التي نتلفظ بها بألسنتنا شيءٌ آخر مختلف. وهذه الأقوال والعبارات اتخذت شكلاً وقالباً محدداً، لا علاقة له بالنيات. إننا صرنا نقول: "أقول ما يرد على لساني، والله تعالى يعلم بالمقصود، ويقبله". إننا نستخدم الكثير من العبارات دون تحقق وتفكير بها، ودون فهمها.

مثلاً نقول لمن نحب أو لمن قدم لنا مساعدة: "أسأل الله أن يعطيك مرادك"، أو "أن يعطيك ما في قلبك". ندعو بمثل هذا الدعاء ونعتقد أننا لاطفنا قلبه. حيث نقصد أننا نتمنى له أن يحقق رغباته، ومن ثم نرجو أن ينال سروراً وسعادة على شاكلة السعادة والسرور التي تحققت لنا بمساعدته لنا. ونحن لا نعرف ما في قلبه، ولا نعلم إن كان ما في قلبه خيراً له أم شراً. فربما كان ما في قلبه ليس بالأمر المشروع، وربما ليس بخير له. فمثل هذا التمني الصادق والمخلص لإنسان ما قد لا يكون تحققه خيراً له.

وهناك دعاء آخر ملفت وغريب للغاية، وهو قول أحدهم: "أسأل الله أن يتقبل كل أدعيتك". إننا في الأساس نريد أن نقول:" يا رب! إنك أعلم ما أريده، وأسألك إياه. فاقبل دعائي واستجب لسؤالي". ونحن لا نعرف شيئاً عما إن كان ما نريده ونسأله خيراً لنا أم لا. فنحن نطلب ونتربص منتظرين تحقق مطالبنا ومسألتنا. ونعتقد أننا سوف نسعد ونسر إذا ما تحققت كما طلبنا وسألنا. ولكن من منا قد يُسر بتحقق كافة رغباتنا ومطالبنا؟ وكيف نجزم أن ما في قلوبنا سيكون خيراً لنا؟

ومن جملة الأدعية التي يمكن تصنيفها وتقييمها ضمن هذا السياق هو دعاء أحدنا عندما يقول: أطال الله عمرك، أو رزقك الله الصحة وطول العمر. إن هذه العبارة أو هذا الدعاء يبدو في الظاهر تمنياً ونية حسنة. إلا أن المعنى الذي تدل عليه الكلمات مختلف جداً. إذ أن الحياة الطويلة تكون خيراً للإنسان إذا ما أتاحت له إمكانية الارتقاء على سلم التكامل المعنوي؛ ولكنَّ ألحياة الطويلة إذا كانت تزيد من تراكم الذنوب والمعاصي على صاحبها، وتجلب له آثاراً سلبية في حياته الأخروية فإنها لن تكون خيراً لمن دعي له بها ولو استمرت مع الصحة والعافية؛ ومن ثم لا ينبغي أن تسأل للإنسان، ولا تطلب له، ولا أن تَدعو له بمثل هذا الدعاء.

وهناك عبارات عجيبة وغريبة نتلفظ بها بنية الدعاء في عزاء عائلة فقدت ابناً لها، حيث نقول: "نسأل الله أن لا يذيقكم الألم والحزن على ولد آخر"، أو "نسأل الله أن لا يحزن ولا يتألم أحد على فقد ولد". إننا نريد بهذه العبارة أن نشير إلى حقيقة أن فقد الولد مؤلم ومحزن، ونتشارك مع من فقد ابنه هنا ألمه وحزنه. فهذه نيتنا، وهذا ما نقصده في قلوبنا. إلا أن معنى الكلمات التي نستخدمها هنا شيء مختلف. فعندما نقول: "نسأل الله أن لا يحزن ويتألم أحد على فقد ولد" كأننا نقول: "نسأل الله تعالى أن يحزن ويتألم جميع الأبناء على آبائهم وأمهاتهم". لأن الموت في هذه الدنيا حقيقة لا يمكن إنكارها، ومن ثم فإن عدم حزن الأب والأم على فقد الولد لا يمكن أن يتحقق إلا بانعدام الموت، أو بعدم إنجاب الأب والأم لولد آخر، أو بموتهما قبل أبنائهما. وهذه حالة ليس لنا أن نسألها ونطلبها أبداً. فالذي نفكر به ونقصده شيء، وما نقوله شيء مختلف ومغاير تماماً.

إننا نستنكر ونتساءل عن تخلف قبول أدعيتنا بدلاً من أن نحاكم أنفسنا ونفتش عن المعنى الذي تدل عليه كلماتنا وعباراتنا. وقد يدفعنا عدم استجابة دعائنا الذي نثابر عليه باستمرار إلى حد اقتلاع عقيدتنا المعقودة بخيط قطني رفيع.

فينبغي أن تحتوي عبارات وألفاظ الدعاء على جوهر ولب الدعاء. أي أن تحتوي على عجز العبد، وفقره، وتواضعه وفنائه. ويجب التوجه إلى الخالق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته والحرص على تقديسه وتعظيمه، والتعبير عن الحاجة إليه. وعلى العبد تحديد ما يسأله بشكل واضح ومحدد، ويسأل أن يكون هذا الشيء الذي يطلبه خيراً له في الدنيا والآخرة، وتكون مسألته واضحة. وينبغي أن يطلب الإنسان ما فيه الخير والفائدة في الدنيا والآخرة واضحاً وصريحاً من دون إبهام وعدم وضوح فيما يُطلب في الدعاء.

وقد ورد في القرآن الكريم نماذج من الأدعية على لسان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وفي الواقع يريد الله تعالى بهذه الآيات أن يعلم عباده كيفية الدعاء. والحاصل؛ يجب علينا بعد تصفية أذهاننا وفكرنا أن نصفي كلماتنا وأقوالنا أيضاً، ونتوجه إلى خالقنا سبحانه وتعالى بما تقتضيه عبوديتنا له، ونتذلل على أعتابه ونسأله أن يختار لنا ما هو خير لنا في دنيانا وآخرتنا متأسينا بالأدعية التي دعا بها الرسل الكرام عليهم السلام:

﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: ٤٧)

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩)

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾

(الأنعام: الآية، ١٢٥)

سويداء القلب

حسب رأي الإمام الغزالي

د. أدهم جبه جي أوغلو

إن تحصيل ما هو أبعد من سويداء القلب، أي روح القلب المتجهة إلى الله ﷻ، المفتوحة نحو حقيقة الإنسان وهي ماهية لطيفيّة من اللطائف حيث ينتهي السالك في طريق السير والسلوك ببلوغ التكامل على رأس لطائف الروح، والسر، والخفي، والأخفى. أي تتم له اللطائف.

وسنرى فيما يأتي ماذا يقول الإمام الغزالي – رحمه الله – بشأن سويداء القلب المفتوحة على الله تعالى، والموجودة في القلب الذي هو نقطة بداية اللطائف، وأول مكان ينطلق منه الذِّكر .

قبل كل شيء إن الإمام الغزالي يعرف القلب في كتابه الإحياء من حيث صفاته على أنه كائن ميتافيزيقي وهو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب. وهذه اللطيفة هي ما تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية. (الغزالي، الإحياء، ج ٣، ص، ٣– ٥)

وهذه اللطيفة غير موجودة لدى الحيوانات فهي لا تمتلك عقلاً، ولهذا رُفع عنها التكليف.

أ) حسب رأي الغزالي للقلب بابان. فأما الباب الأوَّل فمفتوح نحو عالم الملكوت. وهذا العالم هو عالم الملائكة واللوح المحفوظ الذي أودع فيه الكثير من أمور

الغيب. ولا بد أن نبين هنا أن علماء السلف ذهبوا إلى أن اللوح المحفوظ أمر من أمور عالم الغيب ولا يعلم أحد ماهيته وكيفيته. وهذا العالم مجرد وخارج عن حدود الزمان والمكان. وأما باب القلب الثاني الخارجي فمفتوح إلى حواسنا الخمسة التي تحمل أهمية في تحصيل أو إنتاج المعلومات. أي مفتوح على عالم الشهادة الذي نراه ونشاهده بأعيننا.

ويتحدث الإمام الغزالي في كتبه عما أسميناه بسويداء القلب دون أن يسميها بتسمية اصطلاحية غير ما قال عنها: إنها "باب" مفتوح إلى جهة عالم القلب الباطني أو الداخلي. فيبدو أن سويداء القلب تُسمى لدى الإمام الغزالي بـ "الباب الداخلي". وهذا الباب هو كما أسلفنا من قبل باب الإنسان المفتوح على عالم الغيب والملكوت. وعلى ذلك فإن كل ما يقوله الغزالي عن جانب القلب الغيبي هو بمثابة حديث وبيان لسويداء القلب كمصطلح. وباختصار يمكن أن نقول: إن الإنسان يشاهد اللوح المحفوظ بهذا الباب الداخلي للقلب المفتوح إلى الله تعالى. (الغزالي، الإحياء، ٣، ٢١)

فهذا هو تفسير وشرح معنى سويداء القلب التي تشكل موضوع مقالنا لدى الغزالي. وأما باب القلب الخارجي فهو مفتوح إلى الحواس الخمسة المرتبطة بعالم الشهادة المادية، أي حاسة السمع، والبصر، والتذوق، والشم، واللمس.

ب) وفق رأي الغزالي فإن باب القلب الداخلي هذا، أي نقطة السويداء تَرى وتُشاهِد دون الحاجة إلى الحواس الخمسة مثل العين وغيرها، وتعلم وتدرك دون واسطة. أي أنها متحررة من قيود وحدود الزمان والمكان. وبذلك فإنها ما وراء الأخيلة والتوقعات. وهذا يعني أنها تصل إلى معلومات يقينية وأحوال عجيبة تخرج عن حدود الأحلام والزمان والمكان (مثل اليقظة والغيب)، وتمتلك معلومات عن الأشياء الحادثة، والتي ستحدث. (الغزالي، الإحياء، ٣، ٢١)

وعلى ذلك فإنه لا فرق في نقطة السويداء بين الرؤية، والمرئي، وغير المرئي. كما في الأحلام تماماً...

ج) وحسب رأي الغزالي فإنه يجب لتحصيل هذه المشاهدة والمعلومات تطهير القلب المعنوي قبل كل شيء. وهذا لا يحدث إلا بتخلص الروح من رغبات وأهواء البدن الذي ارتبطت به وتحررها منه. ووفقاً لرأي الغزالي فإنه بإمكان السالكين الذين يزيحون الحُجب التي تعيق عمل عين القلب من خلال منهج السير والسلوك الصوفي، بإمكانهم تحصيل العلوم حتى علوم العالم الفيزيقي مباشرة دون واسطة، وليس تحصيل معلومات عن العالم الميتافيزيقي فقط. (الغزالي، الإحياء، القاهرة ١٣٠٢، ٤، ٣٥٧)

حسب رأي الغزالي :
أن علماء السلف ذهبوا إلى أن اللوح المحفوظ أمر من أمور عالم الغيب ولا يعلم أحد ماهيته وكيفيته. وهذا العالم مجرد وخارج عن حدود الزمان والمكان. وأما باب القلب الثاني الخارجي فمفتوح إلى حواسنا الخمسة التي تحمل أهمية في تحصيل أو إنتاج المعلومات. أي مفتوح على عالم الشهادة الذي نراه ونشاهده بأعيننا.

وأريد هنا الإشارة إلى أمر ملفت للانتباه. كما هو معلوم فإن القلب والكعبة كلاهما بيت الله تعالى، وإن الجانب الذي يتشابه فيه البيت المادي/ الكعبة، والبيت الميتافيزيقي/ القلب هو البابان:

فكما أن للقلب باباً مفتوح للداخل وآخر مفتوح إلى الخارج، كذلك فإن للكعبة أيضاً باباً مفتوحاً للداخل، وآخر للخارج. فحسب ما تذكر المصادر كان للكعبة في عهدها الأوَّل بابان. أما أحدهما فهو الذي نعرفه اليوم والذي يبلغ ارتفاعه ١٩٢ سم. وأما الآخر فكان في الطرف المقابل له تماماً. وقد تم إغلاق

هذا الباب الثاني في عهد قريش قبيل النبوة ثمَّ فتحه ابن الزبير ﷺ ثم أغلقه الحجاج بن يوسف الثقفي بأمر من عبد الملك بن مروان. إن باب الكعبة الموجود اليوم يجاور الحجر الأسود، أي النقطة السوداء (البداية)، بينما الثاني الذي كان موجوداً في السابق فإنه كان يجاور الركن اليماني. وهذا الأمر كأنه يشير إلى أن الباب الحالي يقابل أو يرتبط بنقطة السويداء الباب الداخلي، بينما يقابل الباب الثاني الفؤاد الباب الخارجي. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان سابقاً داخل الكعبة حفرة مثل المخزن. فليت أن الباب الثاني ما يزال إلى اليوم كما كان في بداية عهد النبي ﷺ. إن الكعبة المادية هي قبلة عباداتنا البدنية، وأما قبلة الإيمان والمعنويات فهي نقطة السويداء، هي القلب، وإن كلاً من الكعبة والقلب مرتبطان مباشرة بالله تعالى. أي أنهما "بيت الله"... ولنفهم سويداء القلب دعونا نلقي نظرة على باب القلب المفتوح إلى العالم الخارجي أيضاً.

د) عندما يفسر حمدي يازر ألمالي سورة الهمزة فإنه يطلق على جانب القلب المفتوح إلى الخارج اسم الفؤاد كما يفعل ابن بَرَّجَان تماماً.

يقول الإمام الغزالي باختصار عن جانب القلب هذا الذي أطلقنا عليه الباب الخارجي، أي "الفؤاد":

إن "فؤاد" القلب الذي عرفناه بأنَّه لطيفة في داخله يحوي قدرة على المعرفة والرؤية. وهذه القوة تنير العقل بقدر ما يستطيع تلقيه، وتضيء للإنسان الأشياء التي يتوجه إليها لمعرفتها. فالقلب حسب رأي الإمام الغزالي نور، وبهذا النور يتخلص الإنسان من الشبهات ويصل إلى علم اليقين. فهذا العلم العائد للخارج لا يُحصل بطريقة غير مباشرة بالأدلة المستقاة من العالم، وإنما يُحصل من الداخل بالنور الصادر من الله تعالى إلى القلب مباشرة دون واسطة. (الغزالي، المنقذ من الضلال، ص، ٧)

وما يلفت الانتباه ويثير الدهشة النتيجة التي توصل إليها تولستوي بشأن علاقة القلب والعلم، حيث يقول: "لم يعلمني العقل شيئاً أبداً، فكل ما عرفته وتعلمته إنما تلقيته بواسطة القلب".

وقد اكتشف علم تشريح القلب وعلم الفراسة وقراءة الوجه الحديث وبشكل مثير أن هذه الاستنارة في قلوبنا التي تحدث عنها الإمام الغزالي موجودة بالفعل في قلوبنا بشكل بيولوجي. وفي قلوبنا المادية شيء من هذا النوع ولكن بشكل مختلف وهو مصدر نور موضعي بالمعنى التشريحي، وتُطلق عليه تسمية Flüg Flack.

القلب حسب رأي الإمام الغزالي نور، وبهذا النور يتخلص الإنسان من الشبهات ويصل إلى علم اليقين.
فهذا العلم العائد للخارج لا يُحصل بطريقة غير مباشرة بالأدلة المستقاة من العالم، وإنما يُحصل من الداخل بالنور الصادر من الله تعالى إلى القلب مباشرة دون واسطة

إن هذا الجسيم المتناهي في الصغر الكامن في القلب والذي لا يرى بالعين ويمكن من الناحية المادية توصيفها بنقطة ميكروسكوبية يقع في نقطة تلاقي الوريد الأجوف الأعلى مع الأذين الأيمن. إنه جسيم يؤمن الحركة للبدن المادي دون اتصال القلب به ويومض مثل ضوء إنذار آليات الإسعاف. فالضوء الذي يصدره هذا الجسيم المادي المتناهي في الصغر يصل أولاً إلى الدماغ، ومن هناك يتولى إدارة البدن المادي. ويتحدث الطب الحديث اليوم عن تأثير هذا الضوء الذي يصل من القلب إلى الدماغ، فيقول مبيناً باختصار: إن النقطة السوداء تظهر للمرة الأولى من عقدة الأذين والبطين من أسفل الوريد الأجوف. ثم يأتي إلى العقدة الجيبية الأذينية في وسط القلب تماماً (حيث يلتقي الأذين

والبطين). ومن هناك يوجه التنبيهات للقلب بكامله من خلال أحزمة حسية. وفي الوقت ذاته تذهب هذه التنبيهات إلى الدماغ أيضاً. أي أن تنبيه الدماغ يحدث بهذه المؤثرات القادمة من القلب.

إن وصف الغزالي القلب بالنور لا يتوافق فقط مع علوم الطب الحديث، وإنما يتوافق في الوقت نفسه مع ما جاء في القرآن الكريم أيضاً. فالغزالي إنما يتحدث عن هذه المسالة انطلاقاً من الآية القرآنية:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

وكذلك يمكن في هذا المجال أن نأخذ هذه الآية بعين الاعتبار:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ (الزمر: ٢٢)

إن تقديم الغزالي للقلب على الدماغ واعتباره مركز العلم والمعرفة معتمداً على الآيات القرآنية، رغم عدم التطرق إلى مثل هذه العلاقة والتواصل الضوئي بين القلب والدماغ في علم الفراسة وقراءة الوجه وتشريح القلب المتوفر في ذاك الوقت لأمر عجيب ومثير للدهشة.

إن الأمر يستوجب التوقف هنا والتفكير ملياً حول حديث الغزالي قبل تسعة قرون عن تأثير النور الصادر من القلب المادي على الدماغ. وكان قد تم التطرق إلى الأمر نفسه من قبل إبراهيم حقي الأرضرومي في القرن الثامن عشر كما تناولنا في مقالاتنا السابقة.

وكما قال ضيا باشا في منظومته الشعرية:

"سبحان من تحيّرت في سننه العقول".

هـ) كما هو معلوم فإن جزء القلب المفتوح إلى الكثرة وهو الفؤاد محل مشاهدة، وأما حبة القلب فهي محل العشق الإلهي. وأما نقطة السويداء فهي مركز مشاهدة الغيب، ومحل العلم اللدني والأسرار الإلهية.

وحسب ما يرى الغزالي فإن للقلب سبعة أطوار، والقلب واحد من هذه الأطوار، وأطوار القلب السبعة هذه تشبه أعضاء السجود السبعة في البدن، وكل طور يسجد عليها. (الغزالي، الإحياء، ج ٣، ص، ٧)

وفي النهاية نقول:

لقد تحدث الكثير من العلماء عن القلب وقد أطلقوا على قسم القلب المفتوح إلى الداخل أسماء مثل: سويداء القلب، اللب، النقطة، حبة القلب وغيرها، لكنَّ الغزالي قد أطلق عليه تسمية "الباب الداخلي".

وحسب تعبير الغزالي فإنه لا بدّ من استخدام بابي القلب حتى يشاهد هذ القلب عظمة الله تعالى ويعرفه. فيجب استخدام بابي القلب، أي الباب الداخلي/ نقطة السويداء، والباب الخارجي. وهناك حاجة ملحة وحتمية للتصفية والتزكية بالمفهوم الصوفي. فهذه الحاجة لا غنى عنها لأجل الكمال الإنساني.

عن النعمان بن بشير ﷺ قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». متفق عليه

صلاح العمل مرتبط بصلاح القلب، وفساده مرتبط بفساده، يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى:

"القوم إذا صلحت قلوبهم فلم يبقَ فيها إرادة لغير الله ﷻ صلحت جوارحهم فلم تتحرك إلا لله ﷻ، وبما فيه رضاه".

"ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح".

محمد دينج

إني على طريق الحياة
مسافر غريب

إنني رجل كثير الترحال والأسفار لأسباب مختلفة. ففي كلِّ أسبوع أسافر مرة واحدة على الأقل خارج المدينة، وفي الغالب أتنقل في رحلاتي بواسطة الطائرة. إن طريق السفر طويل، وساعات الرحلة طويلة، ورفاق الطريق كثيرون ومختلفون. إنك تتشارك مع أناس من أعمارٍ مختلفة، وذوي طباع وشخصيات متنوعة في المكان ذاته، والظروف ذاتها تقريباً، وإنك تحصل ولو بنسبة قليلة على تعارف وألفة ناتجة عن التشارك الاضطراري. وقد لاحظت خلال رحلاتي نتيجة المراقبة والرصد، وعلاقات التعارف والتآلف مع رفاق الطريق الاضطراريين أن هناك صنفين من المسافرين.

أما الصنف الأول منهم فهو المسافر المتشائم. فهذا النوع يتميز بالتوتر والاضطراب الآني وغير المبرر، ويرقب وينظر إلى من حوله بعين الشبهة والريبة، وكأنه يقول: "كيف صرت هنا"، ويترقب حدوث مشكلة لأتفه الأسباب. ولا تسمع منه سوى التأفف والشكوى والتذمر، ولا يتحدث مع الآخرين ممن حوله، وإذا ما حاول أحد محادثته فإنه يرد بأسلوب بارد مغلقاً باب الحديث سريعاً. ومثل هذا النوع يُعرف من تقاسيم وجوه أثناء تقديم ضيافة الرحلة فإنهم لن يرضوا بها ولن تعجبهم، فهم إما يتناولون منها لقمة واحدةً أو يردونها كما قدمت لهم. ثم إنهم يبدؤون بالشكوى والتذمر من مذاق الطعام، أو مستوى الملح فيه، أو نوعه، أو طريقة تقديمه بطريقة يسمعها من حولهم. ويتوجهون إلى الشاشة الموجودة أمامهم فيقلبون كافة قنواتها وبرامجها وسرعان ما يغلقونها دون أن يعجبهم شيء منها، ثم يحاولون النوم بعصبية. وبعد التقلب والتأفف، وتغير تعابير وجوههم وتلونها والعجز عن النوم ينهض أحدهم ويبدأ بالسير في الممر جيئة وذهاباً، ويلقي بنظراته التي يملؤها الغضب والحنق على النائمين بهدوء، أو على من يستمتعون بمشاهدة القنوات أو الأفلام. وما إن تلامس عجلات الطائرة الأرض حتى تراه نهض من مقعده، وأخذ يتناول حقائبه. ثم يبقى واقفاً بوجوم والحقائب في يده لمدة ١٥ دقيقة محولاً كل ثانية منها إلى سم على من حوله. وبعد انتهاء الرحلة يلزمهم ضعف مدتها ليرتاحوا من عنائها.

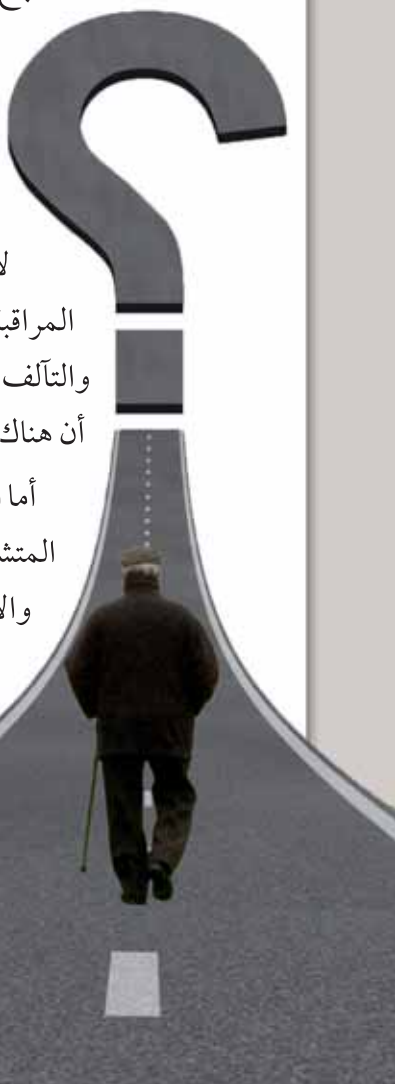

وأما الصنف الثاني فهو المسافر المتفائل. وهذا النوع من المسافرين يبدأ كل رحلة يقوم بها وهو على ثقة تامة أنه سوف يجد متعة وسعادة جديدة، ومن ثم فإنه يخوض رحلته بوجه بشوش، ونظرة متفائلة تحولها إلى متعة وفرح. وأول ما يفعله هؤلاء في رحلتهم أن يتمنوا رحلة سعيدة وموفقة لمن حولهم، ويتحدثون معهم حسب موقفهم وردات فعلهم؛ وهم في كل مرة تحلق فيها الطائرة نحو السماء ينظرون من النافذة إلى الأرض ويُدهشون مما يرونه من مناظر عجيبة على سطحها وكأنهم يرون أعجب ما فيها. وخلال الرحلة يشغلون الشاشة التي أمامهم فيختارون فلماً يعجبهم من القائمة، ويتابعونه إلى نهايته باستمتاع، ثم ينتقلون إلى قائمة الموسيقى فيختارون معزوفة ويبدؤون بالنوم على أنغامها الهادئة المريحة. وعندما يتم إيقاظهم من أجل وجبة الطعام فإن الناظر إليهم يشعر وكأنهم كانوا نائمين في أنعم فراش للبشاشة والابتسامة الجميلة التي تبدو على وجوههم. وأما على مائدة الطعام فإنهم حتماً يعثرون على أشياء تعجبهم، ويتلذذون بها حتَّى أنك تشتهي أن تأكل الطعام الذي أمامهم ولو كنت شبعاناً. ثم إنهم في كل محطة لا بد أن ينزلوا من الطائرة إلى أرض المطار مهما كانت مدة الرحلة قصيرة، ويحاولون استكشاف أشياء جديدة، ومن المؤكد أنهم يعثرون على شيء. وإنهم يستمتعون بطعم نهاية الطريق، ويتلذذون بكل ثانية عند اقتراب الطائرة من أرض المطار. ويكون حالهم عند انتهاء الرحلة وكأنهم لم يسافروا، ويحدثون أصحابهم أحاديث طويلة عما شاهدوه خلالها.

إن الحياة بدورها عبارة عن رحلة ونحن جميعاً مسافرون فيها. وبإمكاننا أن نكون فيها المسافر المتشائم الذي ينظر إلى كل شيء خلال الرحلة نظرة سلبية، ويسمم جو الرحلة على نفسه وعلى من حوله؛ كما بإمكاننا أن نكون المسافر المتفائل المرح الذي يستمتع بكل لحظة من لحظاتها، ويجد شيئاً مثيراً ليتحدث به عن الرحلة. يجب علينا ونحن نودع عاماً جديداً أن نتخلص من كل مظاهر التشاؤم التي صادفناها على الطريق ونرميها خلفنا، ونكمل الطريق نحو المستقبل بتفاؤل ومرح ومتعة. رحلة سعيدة...

المجتمع المطمئن

إذا ألقينا نظرة على مجتمع عصر الرسول ﷺ، فإننا لن نصادف أي مشكلة اجتماعية أو اقتصادية حقيقية تعصف به، لأن الناس في ذلك المجتمع كانوا يداومون على طاعات وعبادات فريدة في أثرها الاجتماعي والاقتصادي، فمواظبتهم على صيام الفرض والنافلة بإيمان راسخ، كان يحث الإنسان- بمحاسبة النفس- على الرحمة والرأفة واستشعار حال المحتاجين، وكانت مظاهر الرحمة مثل الزكاة والإنفاق والصدقات تحلُّ المشاكل الاجتماعية والاقتصادية. وعلى هذا الأساس أنشأ العثمانيون مؤسسات الرحمة في المجتمع، فلبَّوا حاجات المجتمع المادية والمعنوية بالمساجد والمدارس والتكيات والمستشفيات والسُّبل والمطابخ الخيرية وغيرها من المؤسسات، وضمنوا الطمأنينة والسكينة في البنية الاجتماعية.

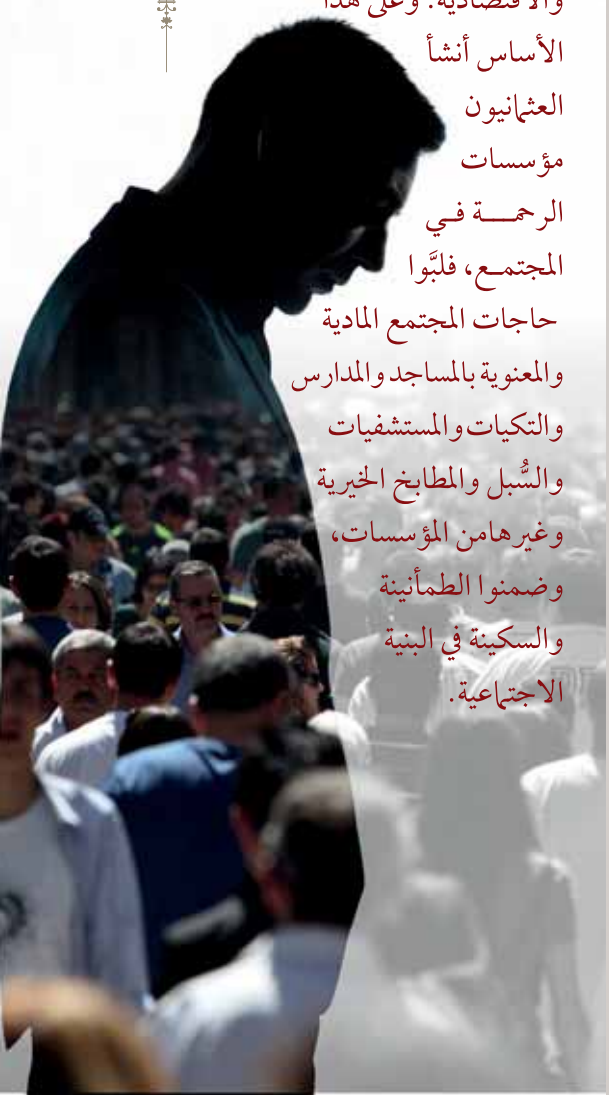

العاقبة

آمنائي دمير جي

ما إن يلامس الرمل النار حتى تنفرج أساريره، ويزول تكدره، ويذهب شحوبه وقتامته، وتظهر عليه الشفافية. ويصبح صفاؤه لغة لشعر صامت. فيبتعد عن شواطئ البحر، ويقترب من نَفَس الإنسان.

يفتح شفتيه للماء مرة تلو الأخرى، فيرق ثم يرق حتى يصبح اسماً للأمانات المرهفة الهفهافة على لسان نبي الله... إذ نادى: "رويداً يا أنشجه! رفقاً بالقوارير". ثم يوضع في صدارة الحياة بصمت وهدوء. ويُعد ليحمل على أكف الراحة، ويستوي وجهه وقفاه، ويتماثل خارجه وباطنه.

يصبح الرمل زجاجاً... يصبح كأساً، يصبح إناءً. يمتد إلى الشفاه الملتاعة لتقبله بحرارة. ويحرس النوافذ؛ ويدعو الضوء والنور إلى القلوب. ويقف أمام الأعين؛ ويصبح طريقاً لمرور النور.

الزجاج يحمل أسرار المرايا. ويفيض بأشواق مئات بل آلاف وملايين الجميلات. يحل النهار فيتشرب الزجاج باحمرار الزهور؛ ويصبح روح الأرواح. ويأتي نهار آخر فيتكدر لحزن الخزامى؛ ويسكب انكساراته في خلايا القلوب. إنه موجود ولكنه يبدو وكأنه معدوم. إنه موجود بقدر ظن انعدامه. يُنتظر منه الإظهار دون أن يُرى. ينادي "أنا عدم" ويُظهر غيره للوجود. لا يشكل عبئاً على العيون، ويخفف من الأشواق والحنين. يصبح قلباً للصدور الملهوفة المشتاقة.

يتلقى الزجاج على أيدي المَهرة الآلام والتعذيب تربية وتهذيباً حتى يستوي ظاهره وباطنه. ويرسم الرمل الذي يتخلى عن شحوبه وقتامته في اختبارات النار حالة جديدة لغباره. حيث يستقطر بالقطارات... ثم يحتضن نفس الإنسان كالناي. حيث يُنوى استضافة البرودة في ثقوبه المفتوحة بنفخة الأنفاس. فيتخلى عن وجوده. ويصبح قابلاً لنفاذ الضوء منه، وعندما يصبح شفافاً ينفتح على النهار، ويستقبل الشمس، ويميل إلى القلوب، وينفتح على الإنسان، ويفتح مغاليقه. يصبح نافذة لكل مسكن ومأوى، ويحمل الأنظار إلى الأقاصي. ثم يتقلد الأسرار، فيصبح مرآة، تغدو رفيقة المحارم وحافظة الأسرار، حيث تحفظ الأسرار ثم تعيدها في الحال لعيني رفيقها. إنها تدعو الإنسان لأن يكون كما هو.

الزجاجات تذكر الأرواح أن تكون كالزجاج.

إن باطن الإنسان ظاهر مستور خفي أمام الزجاجات ... إنها تهمس للإنسان بحكم الظاهر. فالإنسان أمام المرايا سر خفي نسجه الباطن بدقة وعرضه على النار ونفخ فيه من نفحاته. فالزجاج يحفظ سر الباطن في قلبه.

تظهر الروح للناظر من الزجاج هشة قابلةً للكسر أيضاً. ويظهر للناظر جلياً أيضاً أن الزجاج يخبئ في باطنه روحاً من وراء الروح.